@ketab_n
Follow Me
7.5.2017

المؤلف الحائز على جائزة نوبل للآداب 2014

باتريك موديانو

حادث ليليّ

رواية

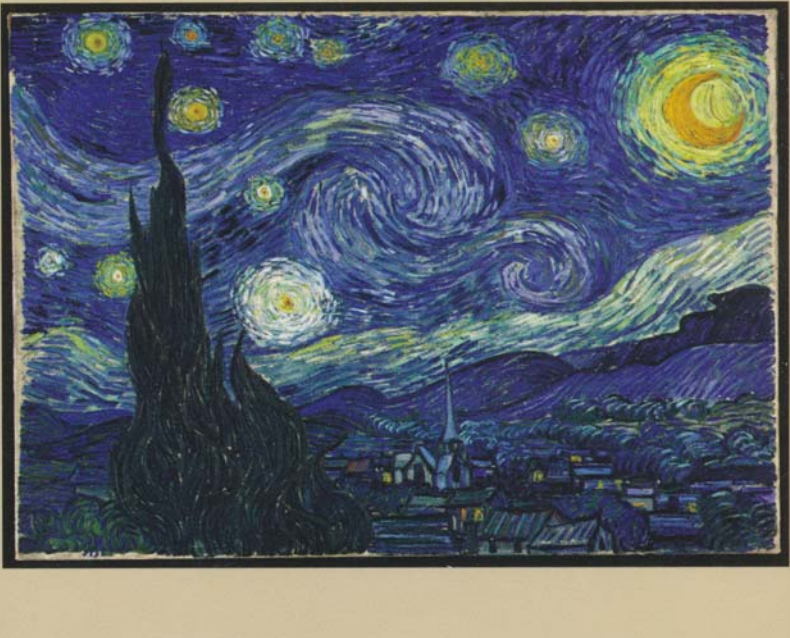

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

باتريك موديانو

حادث ليليّ

رواية

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

مراجعة

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2673.O3 A6412 2015

Modiano, Patrick, 1945-

[Accident nocturne]

حادث ليليّ : رواية / تأليف باتريك موديانو ؛ ترجمة دانيال صالح ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2015.

177 ص. ؛ 11 × 18 سم.

ترجمة كتاب : Accident nocturne

تدمك : 978-9948-17-448-6

1- القصص الفرنسية- القرن 21.

أ- صالح، دانيال. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسيّ:

Patrick Modiano

Accident nocturne

© Éditions GALLIMARD, Paris, 2003

لوحة الغلاف: «سماء مرصّعة بالنّجوم» لفنسنت فان غوخ Vincent van Gogh، 1889.

كلمة KALIMA

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

حادث ليليّ

Twitter: @ketab_n

مقدّمة

هذه واحدة من ستّ روايات للكاتب الفرنسيّ باتريك موديانو Patrick Modiano، الفائز بجائزة نوبل للآداب للعام 2014، تصدر ترجمتها تباعاً في منشورات مشروع «كلمة» للترجمة، وتترجمها جميعاً الشاعرة اللبنانية دانيال صالح. وهذه الروايات كان قد تمّ اختيارها وبدأ التفاهم على حقوقها مع ناشرها الفرنسيّ قبل الإعلان عن جائزة نوبل للعام الماضي بشهور. ثمّ جاء فوز موديانو بالجائزة ليؤكّد ضرورة ترجمته بهذا الزخم وبهذا التركيز على عدد من أهمّ أعماله وأكثرها انتشاراً.

عُرف موديانو (المولود في بولوني-بيانكور قرب باريس في 30 تموّز/ يوليو 1945) بكتابة موجزة تعمل بالإضمار والمحو، وتتضمّن شحنات عالية من الشِّعر.

Twitter: @ketab_n

كتابة يمزج صاحبها عمل الأخيلة والذكريات، ويعيد تصوير التاريخَين الشّخصيّ والجماعيّ، رافضاً السقوط في منطق التوثيق المحض أو التسجيليّة السّافرة، ومتحرّراً من أسار الزمن الخطّي والنموّ المتتابع للأحداث. أبطال رواياته وقصصه هم دوماً منجرفون في تساؤل عن الهويّة وصراع أليم مع الذاكرة، وفي محاولة شبه يائسة لإعادة تجميع عناصر ماضٍ لا يني يتفكّك دون أن يقدروا هم على الوصل بين شظاياه المتناثرة. هذا كلّه مكّنه من أن يبني، بلغة شفّافة ومتميّزة بعباراتها القصيرة المتلاحقة، عالماً سريّاً وأليفاً في آنٍ معاً. وفي حرصه على عدم الكشف كلّياً عن لغز التجربة في العمل الأدبيّ صرّح في حوار معه بمناسبة صدور روايته الأخيرة: «ينبغي ألّا نميط اللّثام عن اللّغز أبداً. وفي كلّ الأحوال، لا يقدر الكاتب على ذلك. فمهما عملَ على إضاءة اللّغز بتدقيق وتعمّق فهو لن يعمل إلّا على مفاقمته. لقد قال صامويل بيكيت عن مارسيل بروست، الذي لم يكن إلى حدّ ما ليقوم بشيء آخر سوى تفسير شخصيّات عمله، إنّه، بتفسيره لها، إنّما كان يُفاقم لغز كلٍّ منها ويحيله أكثر كثافة».

Twitter: @ketab_n

هذه المواصفات نراها مجسدّة خير تجسيد في كتابة هذه الرواية. هنا نلتقي أوّلاً بموديانو مسّاح باريس، الخرائطيّ والأرشيفيّ البارع الذي يعيد رسم جغرافيّتها الفعلية بدقّة وشاعريّة في آنٍ معاً، ويجعل منها مسرحَ بحثٍ شبه تلقينيّ نستسلم لإغوائه منذ أولى الصّفحات. هي جولات متهمّسة ومضنية في مساحة الواقع وكتَل الوثائق ومختلف صنوف العلامات، يقوم بها في الغالب فرد متوحّد يهيمن عليه ثقل الماضي وتحدوه تساؤلات ممضّة عن أصوله، وعمّا ساهم في تكوينه دون أن تكون له يدٌ في ذلك، تحدوه إلى استقراء الوجوه والوقائع والكلمات بشغفٍ يقارب الهوس، وبعنادٍ يمكن أن ننعته بالبطوليّ.

كتابة تكشف بلمسات حاذقة وحركات مداوِرة عن يُتْم بدئيّ مضطلَع به، وعن بنوّة للتجربة وحدها، وانفتاح على ما يأتي. كلّ واحد من أبطاله، وهم في الغالب الأعمّ لسان حال المؤلّف ذاته، يمكن أن يقول ما يقوله بطل الرواية المترجمة هنا عن نفسه: «كنت أتساءل في تلك الغرفة من فندق فريمييه إن لم أكن أسعى، على الرغم من العدم الذي يلفّ أصولي والفوضى التي تحكم طفولتي، لاكتشاف

Twitter: @ketab_n

نقطة ثابتة، أمر يبعث الطمأنينة، مشهد، يساعدني في هذا الظرف بالذات على تثبيت قدميّ والنهوض من جديد. ربّما هناك جزء كامل من حياتي لا أعرفه، قاع صلبة تحت الرمال المتحرّكة. وكنت أعوّل على سيّارة الفيات الخضراء المائيّة وعلى سائقتها لمساعدتي على العثور عليه.»

ونلقى أيضاً التخييل الذاتيّ، أو راوية السيرة الذاتية، مع إمعان في التمويه والمناورة ورفض النرجسية والانحباس في الذّات. في عدّة روايات، وفي هذه أيضاً، يستعيد الكاتب شذرات من ماضي أبيه، وتورّطه في أنشطة السّوق السوداء أثناء الاحتلال النازيّ بباريس. الأب نفسه يهوديّ أخفى هويّته لينفذ بجلده. تتملّك المتكلّم في روايات موديانو حسرة على أنّ ذلك الأب لم يكن في الضفة الأخرى، ضفّة المقاوِمين، ويؤرّقه تساؤل متواتر عن حقيقته، سرّه الشخصيّ ونهايته بعد لقائهما الأخير يوم كان الكاتب في مقتبل شبابه. وباضطلاعه بمهمّة ابتكار حياة الأب الغامض ذاك، يبتكر المؤلّف أو بطل روايته نفسَه ويعيد ابتكار العالَم حوله.

لا معونة يمكن التماسها هنا إلّا من الخيال اليقظ

Twitter: @ketab_n

والبحث المتهمّس والثقة بالعثور على شيء مرئيّ في ما وراء السّتار، ومن صداقة عميقة مبرمة مع أبسط الأشياء وأدنى إمكانات الوضوح. إنّه يقين أشبه ما يكون بيقين المسرنم في أن يعثر على نهجه في قلب الظلام: «لم أعد أدري أين قرأت (...) أنّه يمكن في ساعات معيّنة من الليل أن ننزلق إلى عالم موازٍ: شقّة خالية لم نطفئ فيها الضوء، وحتّى طريق ضيّق مسدود. هناك نعثر على أغراض أضعناها منذ زمن بعيد: جالبة حظّ، رسالة، شمسيّة، مفتاح، والقطط، الكلاب أو الأحصنة التي فقدناها على مرّ الحياة».

على النّحو ذاته يرسم الكاتب في هذه الرواية مساراً متشابكاً في البداية، باهر الوضوح في الختام، سيكون في إيجاز أحداثه تعطيلٌ لسِحره. مسار ينبثق إمكان الفهم واللّقاء فيه عندما يكون التخبّط واليأس من العثور على ضالّة الرّوح قد ألقيا كلّ ما لديهما من أسلحة.

كاظم جهاد

باريس، شباط/ فبراير 2015

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إلى دوغلاس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ذات ليلة، في وقت متأخّر، منذ زمن بعيد كنت فيه على وشك بلوغ سنّ الرشد، كنت أعبر ساحة البيراميد[1] متوجّهاً إلى ساحة الكونكورد حين ظهرت فجأة سيّارة مندفعة من العتمة. ظننت في بادئ الأمر أنّها لامستني، ثمّ أحسست بألم حادّ يمتدّ من كاحلي إلى ركبتي. كنت سقطت على الرصيف. لكنّني تمكّنت من النهوض. انحرفت السيّارة واصطدمت بإحدى قناطر الساحة وسط ضجيج تحطّم زجاج. فُتح الباب وخرجت امرأة تترنّح. كان هناك شخص واقف أمام مدخل الفندق، تحت القناطر، أرشدنا إلى الردهة. انتظرنا، أنا والمرأة، جالسَين على كنبة جلديّة حمراء، فيما كان يُجري اتّصالاً هاتفيّاً من مكتب الاستقبال.

(1) ساحة الأهرامات. (الحواشي وضعتها المترجمة).

Twitter: @ketab_n

كانت مصابة في جوف خدّها، في أعلى وجنتها وعلى جبينها، وكانت تنزف. دخل رجلٌ أسمرُ جسيمٌ قصيرُ الشعر إلى الردهة وتقدّم صوبنا.

في الخارج، تشكّلت حلقة حول السيّارة التي بقيت أبوابها مفتوحة، وكان أحدهم يدوّن ملاحظات وكأنّه يعدّ محضراً. تنبَّهْتُ ونحن نصعد في حافلة شرطة النجدة إلى أنّني فقدت حذاء قدمي اليسرى. كنّا أنا والمرأة جالسين جنباً إلى جنب على المقعد الخشبيّ الصغير. الرجل الأسمر الجسيم كان جالساً على المقعد الآخر قبالتنا. كان يدخّن وبين الحين والآخر، يرمقنا بنظرة باردة. رأيت من الزجاج المشبّك أننا نتبع رصيف نهر السين بمحاذاة حدائق التويلري. لم يتركوا لي الوقت للمّ حذائي، وخطر لي أنّه سيبقى هناك طوال الليل، في وسط الرصيف. لم أعد أذكر تحديداً إن كان ما تركته خلفي حذاءً أم حيواناً، ذاك الكلب من طفولتي الذي دهسته سيّارة حين كنت أقيم في ضاحية باريس، في شارع كان يعرف بشارع الدكتور كورزين. اختلط كلّ شيء في رأسي. ربّما أُصبت في جمجمتي عندما سقطت. التفتّ إلى المرأة. فوجئت

Twitter: @ketab_n

برؤيتها ترتدي معطفاً من الفرو.

تذكّرت أنّنا في الشتاء. ثمّ إنّ الرجل قبالتنا كان يرتدي هو أيضاً معطفاً، فيما كنت أنا نفسي أرتدي واحدة من تلك السترات القديمة المبطّنة بالصوف التي يمكن العثور عليها في سوق البراغيث[1]. أمّا هي، فمن المؤكّد أنّها لم تشترِ معطفها الفرو من سوق البراغيث. أكان من فرو المنك؟ أم السمّور؟ كان مظهرها أنيقاً، ما يتباين مع الجروح على وجهها. لاحظْتُ على سترتي بقعاً من الدم فوق الجبين بقليل. كان خدش كبير يعترض راحة يدي اليسرى، ولا شكّ أنّ بقع الدم على القماش ناتجة عنه. كانت جالسة مستقيمة الظهر إنّما محنيّة الرأس، وكأنّها تحدّق في نقطة ما على الأرض. ربّما قدمي الحافية. كان شعرها متوسّط الطول، وبدت لي شقراء في نور الردهة.

كانت حافلة الشرطة قد توقّفت عند الإشارة الحمراء على رصيف النهر، بمستوى كنيسة سان جرمان لوكسيروا. كان الرجل لا يزال يراقبنا بصمت، منقّلاً عينيه الباردتين بيننا، إلى أن بدأ يخالجني إحساس بالذنب.

---

(1) سوق الملابس العتيقة وبقيّة المستعمَلات، وتُسمّى أيضاً «سوق الأحد».

Twitter: @ketab_n

طال الوقت ولم تكن الإشارة تنتقل إلى الضوء الأخضر. كانت الأضواء لا تزال مشتعلة في المقهى عند زاوية الرصيف وساحة سان جرمان لوكسيروا حيث لاقاني والدي مراراً في الماضي. كان ذلك الوقت المناسب للفرار. ربّما كان يكفي أن أطلب من ذلك الرجل على المقعد أن يدعنا نخرج. لكنّني كنت أشعر بنفسي عاجزاً عن التلفّظ ولو بكلمة واحدة. سعلَ سعلةً مدخّن مثقلة بالبلغم، ودهشت لسماع صوت. كان صمت مطبق يخيّم من حولي منذ وقوع الحادث، وكأنّني فقدت سمعي. كنّا نسير بمحاذاة رصيف النهر. عند انعطاف الحافلة لسلوك الجسر، أحسست بيدها تضغط على معصمي. كانت تبتسم لي، كأنّها تودّ طمأنتي، لكنّني لم أكن أشعر بأدنى قلق. بدا لي حتّى أنّنا سبق أن وُجِدنا معاً في ظروف أخرى، وأنّها كانت تبتسم وقتها أيضاً الابتسامة ذاتها. أين رأيتها من قبل؟ كانت تذكّرني بشخص عرفته منذ وقت طويل. الرجل أمامنا غفا، مطأطئاً رأسه فوق صدره. كانت تشدّ بكلّ قوّتها على معصمي، وحين نخرج بعد حين من الحافلة، سوف يوثقوننا أحدنا إلى الآخر بالأصفاد.

Twitter: @ketab_n

بعد الجسر، عبرت الحافلة رواقاً مسقوفاً وتوقّفت في باحة قسم الطوارئ في مستشفى أوتيل ديو. كنّا جالسَين في قاعة الانتظار، وكان لا يزال يلازمنا ذلك الرجل الذي تساءلت ما كان محلّه من الإعراب تحديداً. شرطيّ مكلّف مراقبتنا؟ لماذا؟ وددت لو أطرح عليه السؤال، لكنّني كنت على يقين مسبقاً بأنّه لن يسمعني. بات «صوتي كتيماً» في تلك اللحظة. هاتان الكلمتان تبادرتا إلى ذهني في ضوء قاعة الانتظار الباهر. كنّا أنا وهي جالسين على مقعد مقابل لمكتب الاستقبال. ذهب ليتكلّم إلى إحدى النساء الجالسات خلف المكتب. كنت جالساً بقربها، وأحسست بكتفها لصق كتفي. عاد وجلس في مكانه على مسافة منّا، عند طرف المقعد ذاك. كان رجل أصهب يرتدي سترة جلديّة وسروال نوم يذرع قاعة الانتظار عاري القدمين في حركة متواصلة، وهو ينهر النساء خلف المكتب. كان يتّهمهنّ بعدم الاكتراث له. كان يعبر أمامنا بانتظام ويسعى لملاقاة نظرتي، لكنّني كنت أتفادى النظر في عينيه لأنّني كنت أخشى أن يكلّمني. توجّهت إحدى نساء مكتب الاستقبال صوبه ودفعته برفق نحو الباب.

Twitter: @ketab_n

عاد إلى قاعة الانتظار، وهذه المرّة راح يطلق أنيناً طويلاً، مثل عواء كلب في الليل. بين الحين والآخر، كان رجل أو امرأة يعبر القاعة مسرعاً، يرافقه بضعة شرطيّين، قبل أن يلجوا رواقاً مواجهاً لنا. رحت أتساءل أين يمكن أن يقود ذلك الرواق، وإن كانوا سيدفعوننا إليه بدورنا بعد قليل. عبرَت امرأتان قاعة الانتظار، محاطتين بعدد من عناصر الشرطة. أدركت أنّهما خرجتا للتوّ من حافلة نقل الموقوفين، ربّما الحافلة ذاتها التي أقلّتنا إلى المستشفى. كانتا ترتديان معطفين من الفرو يضاهيان بأناقتهما معطف جارتي، ومثلها بدتا متأنّقتين في مظهرهما. لا جروح على وجهيهما. إنّما أصفاد بيدي كلّ منهما.

أشار الأسمر الجسيم إلينا أن ننهض وقادنا إلى قعر الصالة. كانت قدمي الحافية تعيق مشيتي وقلت في نفسي إنّ من الأفضل أن أخلع الحذاء الآخر. شعرت بألم حادّ في كاحل قدمي الحافية.

تقدّمتنا ممرّضة إلى غرفة ضيّقة فيها سريران صغيران قابلان للطيّ. تمدّدنا عليهما. دخل شاب. كان يرتدي مريولاً أبيض وله لحية نحيفة تطوّق فكّه. كان يتفحّص

Twitter: @ketab_n

استمارة وسألها عن اسمها. أجابت: جاكلين بوسِرجان. سألني أنا أيضاً عن اسمي. تفحّص قدمي الحافية، ثمّ الساق بعدما شمّر قدم بنطالي حتّى الركبة. أمّا هي، فساعدتها الممرّضة على خلع معطفها ونظّفت الجروح على وجهها بالقطن. ثم خرجا، تاركين ضوءاً ليليّاً خافتاً مشتعلاً. بقي الباب مشرّعاً، وكان الرجل يمشي ذهاباً وإياباً في نور الرواق. كان يظهر من فتحة الباب بوتيرة بندول يدقّ الإيقاع. كانت ممدّدة بجانبي، ومعطفها الفرو مفروش عليها مثل غطاء. مدّت ذراعها نحوي وشدّت على معصمي. فكّرت في الأصفاد التي كانت تكبّل المرأتين قبل قليل، وقلت لنفسي مرّة جديدة أنّه سينتهي بنا الأمر نحن أيضاً مكبّلَين.

توقّف عن ذرع الرواق. كان يتكلّم بصوت خفيض مع الممرّضة. دخلت الأخيرة الغرفة، يتبعها الشابّ بلحيته النحيفة حول فكّه. أشعلا الضوء. كانا واقفين عند أسفل سريري. التفتّ صوبها، فرفعت كتفيها تحت معطفها الفرو، كأنّها لتشير لي إلى أنّنا وقعنا في الفخّ ولم يعد بإمكاننا الفرار. وقف الأسمر الجسيم بلا حراك في إطار الباب،

Twitter: @ketab_n

مُباعِداً ساقيه قليلاً، كاتفاً ذراعيه. لم يكن يحوّل نظره عنّا. لا شكّ أنّه كان متأهّباً لقطع الطريق أمامنا إنْ نحن حاولنا الخروج من تلك الغرفة. ابتسمت لي من جديد، تلك الابتسامة الساخرة بعض الشيء التي رأيتها على وجهها قبل قليل في حافلة الشرطة. أقلقتني تلك الابتسامة من غير أن أدري السبب. انحنى الشابّ بالمريول الأبيض واللّحية النحيفة فوقي، وأخذ يثّبت على أنفي ما يشبه كمامة سوداء ضخمة، تساعده الممرّضة. تنشّقت رائحة الأثير قبل أن أفقد وعيي.

*

كنت أحاول بين الحين والآخر أن أفتح عينيّ، لكنّني أعود وأغرق في سبات خفيف. ثمّ عاودتني ذكرى مبهمة عن الحادث وأردت أن أستدير لأتحقّق ممّا إذا كانت لا تزال ممدّدة في السرير الآخر. لكنّني لم أكن أقوى على القيام بأدنى حركة، وهذا الجمود كان يشيع فيّ إحساساً بالهناء. تذكّرت أيضاً الكمامة السوداء الضخمة. لعلّ الأثير هو الذي جعلني في مثل هذه الحالة. كنت عائماً، مستسلماً للتيّار الذي يجرفني على سطح نهر. تراءى لي

Twitter: @ketab_n

وجهها بوضوح، مثل صورة أنتروبومتريّة[1] عريضة: قوسا الحاجبين المنتظمتان، العينان الصافيتان، والشعر الأشقر، والجروح على الجبين، وعلى أعلى الوجنتين وفي جوف الخدّ. كان الرجل الأسمر الجسيم يمدّ لي الصورة في خدَري وهو يسألني «هل أعرف هذا الشخص». دهشت بسماعه يتكلّم. كان يردّد السؤال بدون توقّف بصوت معدنيّ شبيه بصوت الساعة الناطقة. من شدّة ما أمعنت في ذلك الوجه، قلت في نفسي: نعم، أعرف ذلك «الشخص». أو أنّني لاقيت شخصاً يشبهه. لم أعد أشعر بالألم في قدمي اليسرى. كنت أنتعل في تلك الليلة خفّيَ القديمين ذوي النعل المطّاطيّ والجلد المتصلّب، وقد شققت طرفيهما بالمقصّ لأنّهما كانا ضيّقين للغاية ويؤلمانني عند مشط القدمين. فكّرت في ذلك الحذاء الذي فقدته، الحذاء المنسيّ في وسط الرصيف. تحت وقع صدمة الحادث، عادت إليّ ذكرى الكلب الذي دهسَتْه سيّارة منذ وقت طويل، وتراءت لي الجادّة المنحدرة نزولاً أمام المنزل.

(1) صورة شخصيّة من الوجه ومن أحد جانبيه (بروفيل)، تُستخدَم عادةً في المَحاكم وفي الأوراق الثبوتيّة.

Twitter: @ketab_n

كان الكلب يفرّ قاصداً أرضاً خلاء عند أسفل الجادّة. كنت أخشى أن يتيه، فأقف وأترصّده من نافذة غرفتي. غالباً ما كان يفعل ذلك في المساء، وفي كلّ مرّة يعود ويصعد الجادّة ببطء. لماذا أصبحت تلك المرأة مرتبطة في ذهني بمنزل قضيت فيه بعض الوقت في طفولتي؟

سمعت الآخر يسألني من جديد: «هل تعرف هذا الشخص؟» وكان صوته يخفت أكثر فأكثر، تحوّل إلى وشوشة، وكأنّه يهمس في أذني. بقيت عائماً، مستسلماً للتيّار يجرفني على سطح نهر لعلّه النهر ذاته الذي كنّا نذهب في نزهة مع الكلب على طول ضفّته. كانت وجوه تتراءى لي الواحد تلو الآخر، وكنت أقارنها بالصورة الأنتروبومتريّة. آه أجل، كان لها غرفة في الطابق الأوّل من المنزل، الغرفة الأخيرة، في نهاية الرواق. الابتسامة ذاتها، الشعر الأشقر ذاته، لكنّه أطول بقليل. كانت ندبة تعترض أعلى خدّها الأيسر، وأدركت فجأة لماذا بدا لي أنّني عرفتها في حافلة شرطة النجدة: كان ذلك بسبب الجروح على وجهها، التي قد تكون ذكّرتني بتلك الندبة، من غير أن أتنبّه للأمر في لحظتها.

Twitter: @ketab_n

حين أستجمِع ما يكفي من القوّة لأستدير صوب السرير الآخر حيث كانت ممدّدة، سوف أمدّ ذراعي وأشدّ بيدي على كتفها لأوقظها. لا بدّ أنّها لا تزال مدّثرة بمعطفها الفرو. سوف أطرح عليها كلّ تلك الأسئلة. سوف أعرف أخيراً من هي بالضبط.

لم أكن أرى جانباً كبيراً من الغرفة. فقط السقف الأبيض والنافذة، أمامي. أو بالأحرى واجهة زجاجيّة كان غصن شجرة يترنّح إلى يمينها. والسماء الزرقاء خلف النافذة، بزرقة صافية جعلتني أتصوّر في الخارج يوماً شتائياً رائعاً. خلْتني في فندق جبليّ. حين يصبح بوسعي النهوض والمشي إلى النافذة، سوف أرى أنّها تطلّ على حقل يكسوه الثلج، ربّما انطلاقة منحدرات تزلّج. لم أعد منجرفاً مع تيّار نهر، بل كنت في تلك اللّحظة أنزلق على الثلج، في منحدر قليل الانحناء يمتدّ إلى ما لا نهاية، والهواء الذي كنت أتنشّقه كان منعشاً كالأثير.

بدت الغرفة أوسع من غرفة مساء الليلة السابقة في مستشفى أوتيل ديو، وما عزّز ذلك الانطباع أنّني لم ألاحظ أيّ واجهة زجاجيّة ولا أدنى شبّاك في ما يشبه

Twitter: @ketab_n

الحجرة الضيّقة التي جرّونا إليها بعد قاعة الانتظار. أدرت رأسي. لا سرير مخيّم، لا أحد غيري في الغرفة. لا بدّ أنّهم أعطوها غرفة مجاورة لغرفتي، وسوف تردني أخبارها قريباً. والأسمر الجسيم الذي كنت أخشى أن يكبّلنا أحدَنا إلى الآخر بالأصفاد لم يكن على الأرجح شرطيّاً كما ظننت، ولعلّنا غير ملزمين بتبرير أيّ شيء له. بوسعه أن يطرح عليّ كلّ ما يشاء من أسئلة، أن يستجوبني طوال ساعات وساعات، لم يعد يخالجني أيّ شعور بالذنب. كنت أنزلق على الثلج والهواء البارد يبعث فيّ شعوراً طفيفاً بالنشوة. ذلك الحادث الليلة الماضية لم يكن من باب الصدفة. كان يشير إلى صدع. صدمة مفيدة، حصلت في الوقت المناسب حتّى تتيح لي انطلاقة جديدة في الحياة.

كان الباب إلى يساري، بعد منضدة الليل الصغيرة من الخشب الأبيض. على المنضدة وضعوا محفظتي وجواز سفري. وعلى الكرسي الحديد الملاصق للجدار، رأيت ملابسي. وعند أسفل الكرسي، حذائي الوحيد. وكنت أسمع من خلف الباب أصداء أصواتٍ، صوتَي رجل وامرأة يتكالمان في حديث هادئ. لم أكن أرغب في النهوض

Twitter: @ketab_n

إطلاقاً. أردت لتلك الاستراحة أن تدوم، أن تستمرّ لأطول وقت ممكن. تساءلت إن كنت لا أزال في مستشفى أوتيل ديو، لكنّني استبعدتُ ذلك، بسبب الصمت المخيّم من حولي، لا يكاد يبلبله الصوتان المُطَمْئِنان خلف الباب. والغصن لا يزال يترنّح في إطار النافذة. سوف يأتي أحد ما لزيارتي عاجلاً أم آجلاً، ويعطيني توضيحات. ولم يكن يساورني أيّ قلق، أنا الذي كنت أبقى على الدوام مترصّداً في حذر. ربّما كان مردّ تلك السكينة المفاجئة الأثير الذي جعلوني أستنشقه الليلة الماضية، أو عقّاراً آخر مهدّئاً للألم. مهما يكن، فإنّ العبء الذي لطالما شعرت بثقله عليّ انجلى. لأوّل مرّة في حياتي، كنت خفيفاً وخاليَ البال، وتلك كانت طبيعتي الحقيقيّة. السماء الزرقاء خلف النافذة أوحت لي بكلمةٍ: إنغادين[1]. كنت أفتقر على الدوام إلى الأكسجين، وفي تلك الليلة، أدرك طبيب غامض بعد معاينتي أنّه لا بدّ لي أن أرحل بشكل عاجل إلى إنغادين.

كنت أسمع حديثهما من خلف الباب، ووجود هذين الشخصين الخفيّين والمجهولين كان يبعث فيّ الأمان.

(1) إنغادين هو وادٍ في جبال الألب السويسريّة.

Twitter: @ketab_n

ربّما بقيا للسهر عليّ. كانت السيّارة تندفع من جديد من العتمة، تلامسني وتصطدم بالقناطر، يُفتح الباب وتخرج هي مترنّحة. حين كنّا جالسين على الكنبة في ردهة الفندق، وحتّى اللحظة التي أمسكت فيها بمعصمي وشدّت عليه في حافلة نقل الموقوفين، ظننت أنّها ثملة. مجرّد حادث عاديّ، من تلك الحوادث التي يُقال عنها في مركز الشرطة إنّ الشخص كان يقود «في حالة سُكر». لكنّني بتّ واثقاً من أنّ الأمر غير ذلك تماماً. لكأنّ شخصاً ما كان يسهر عليّ من غير أن أدري، أو أنّ الصدفة وضعته على دربي ليحميني. وفي تلك الليلة، كان الوقت يُداهِم. كان يتوجّب إنقاذي من خطر محدّق، أو توجيه تحذير إليّ. عاودتني ذكرى صورة، لا شكّ أنّها طفت إلى ذاكرتي بسبب تلك الكلمة: إنغادين. رأيت قبل سنوات رجلاً ينزلق مسرعاً على منحدر تزلّج وعر، يرتمي عمداً على جدار «شاليه» ويكسر ساقه حتّى لا يذهب إلى الحرب، تلك الحرب التي كانت تعرف بـ «حرب الجزائر». الواقع أنّ ما أراده في ذلك النهار هو أن ينجو بحياته. أمّا أنا، فلم أكسر حتّى ساقي على ما يبدو. خرجت بفضلها هيَ من

Twitter: @ketab_n

الحادث بأقلّ ضرر ممكن. تلك الصدمة كانت ضروريّة. كانت تسمح لي بالتأمّل في مسار حياتي حتّى ذلك الحين. لا بدّ لي من الإقرار بانّني كنت «ماضياً مباشرةً الى الكارثة»، وفق التعبير الذي سمعتُه بشأني.

وقع نظري مرّة جديدة على الحذاء عند أسفل الكرسي، ذلك الخفّ الغليظ الذي شققتُه في وسطه. لا بدّ أنّهم فوجئوا حين خلعوه من قدمي، قبل تمديدي في هذا السرير. رفقوا بحالي، فوضّبوه مع ملابسي وأعاروني تلك المنامة التي صرت أرتديها، زرقاء ذات خطوط بيضاء. من أين جاءهم كلّ ذلك الرفق؟ أغلب الظنّ أنّها هي التي أعطتهم تعليمات. لم يكن بوسعي تحويل نظري عن ذلك الحذاء. فيما بعد، حين تأخذ حياتي مجرى جديداً، يجب أن يبقى على الدوام على مرأى من عينيّ، في موقع جليّ فوق موقد أو في علبة زجاجيّة، تخليداً لذكرى الماضي. وإلى الذين سيرغبون في معرفة المزيد عن ذلك الغرض، سوف أقول أنّه الشيء الوحيد الذي ورثته عن والديّ. أجل، إلى أبعد ما ترجع بي الذاكرة، لطالما مشيت بحذاء واحد. أغمضت عينيّ على ذلك الخاطر، وغلبني

Twitter: @ketab_n

النعاس في نوبة ضحك صامتة.

*

أيقظتني ممرّضة تحمل صينيّة قالت لي إنّه الفطور. سألتها أين أنا تحديداً وبدت متعجّبة لجهلي. في عيادة ميرابو. حين أردت معرفة عنوان تلك العيادة، لم تجبني. راحت تنظر إليّ مبتسمة وكأنّه لا يسعها أن تصدّق. ظنّت أنّني أهزأ منها. ثمّ استشارت استمارة أخرجتها من جيب قميصها وقالت لي إنّ عليّ أن «أغادر المكان». ردّدت لها: أيّ عيادة؟ كانت الأرض تترنّح، كما في نومي. حلمت أنّني أسيرٌ في باخرة شحن، في وسط البحر. كنت أتوق للعودة إلى اليابسة. عيادة ميرابو، في شارع نرسيس دياز. لم أجرؤ على الاستعلام عن الحيّ الذي يقع فيه ذلك الشارع. هل انّه قريب من مستشفى أوتيل ديو؟ بدت على عجلة من أمرها وأغلقت الباب خلفها بدون إعطائي تفاصيل أخرى. كان هناك ضمّادات على كاحلي وركبتي ومعصمي ويدي. لم يكن بوسعي ثني ساقي اليسرى، لكنّني تمكّنت من ارتداء ملابسي. انتعلت حذائي الوحيد وأنا أقول لنفسي إنّه سيكون من الصعب عليّ السير في الشارع، لكن

Twitter: @ketab_n

لا بدّ أن أجد في الجوار محطّة باصات أو مترو، وسوف أصل بدون إبطاء إلى منزلي. قرّرت أن أتمدّد من جديد في السرير. كان لا يزال يغمرني ذلك الإحساس بالهناء. هل سيستمرّ طويلاً؟ كنت أخشى أن يتبدّد مع خروجي من العيادة. متأمّلاً زرقة السماء في إطار النافذة، كنت أعلّل نفسي بأنّهم نقلوني فعلاً إلى الجبل. تفاديت حتّى ذلك الحين الذهاب إلى النافذة، خشية أن يخيب ظنّي. أردت الحفاظ لأطول وقت ممكن على ذلك الوهم بأنّ عيادة ميرابو تقع في محطّة تزلّج في إنغادين. فُتح الباب وظهرت الممرّضة. كانت تحمل كيساً بلاستيكيّاً وضعته على منضدة الليل قبل أن تخرج مسرعة دون التفوّه بكلمة. كان الكيس يحتوي على الحذاء المفقود. تكبّدوا عناء الذهاب لجلبه من هناك، عن الرصيف. أو ربّما هي طلبت منهم ذلك. دهشت لكلّ هذه المراعاة لي. لم يعد هناك ما يمنعني من «مغادرة المكان» – كما قالت الممرّضة. شعرت بالرغبة في المشي في الهواء الطلق.

كنت أعرج قليلاً وأنا أنزل الدرج الرئيسيّ متمسّكاً بالدرابزين. في ردهة المدخل، كنت على وشك الخروج

Twitter: @ketab_n

من الباب الزجاجيّ الذي كان أحد مصراعيه مفتوحاً، حين لمحت الرجل الأسمر الجسيم. كان جالساً على مقعد. أشار لي بذراعه ونهض. كان يرتدي المعطف ذاته كالليلة الماضية. قادني إلى مكتب الاستقبال. سألوني عن اسمي. كان الرجل واقفاً بجانبي، كأنّما ليراقب حركاتي بشكل أفضل، وكنت عازماً على الإفلات منه. وبأسرع ما أمكن. هنا، في هذه الردهة إن استطعت، قبل الخروج إلى الشارع. ناولتني المرأة في مكتب الاستقبال مغلّفاً مختوماً كُتب عليه اسمي.

ثمّ جعلتني أوقّع على جدول خروج، ومدّت لي ظرفاً آخر يحمل مطبوعاً في أعلاه اسم العيادة. سألتها إن كان يترتّب عليّ دفع مبلغ ما، لكنّها قالت لي إنّ الفاتورة تمّ تسديدها. من قبَل مَن؟ في مطلق الأحوال، ما كنت لأجد معي ما يكفي من المال. وفيما كنت أستعدّ لعبور الردهة نحو المدخل، طلب منّي الأسمر الجسيم أن أجلس معه على المقعد. كان يبتسم لي ابتسامة مبهمة، وخطر لي أنّ ذلك الرجل لم يكن بالضرورة معادياً لي. قدّم لي صفحتين من ورق الرسائل الرقيق طُبع عليهما نصّ بالآلة الكاتبة.

Twitter: @ketab_n

كان ذلك «التقرير» -ما زلت أذكر تلك الكلمة التي استخدمها-، أجل، «تقرير» الحادث. كان لا يزال يترتّب عليّ التوقيع على أسفل الورقة، وأخرَج من جيب معطفه قلم حبرٍ نزع عنه الغطاء بنفسه. قال لي إنّ بوسعي قراءة النصّ قبل التوقيع عليه، لكنّني كنت متلهّفاً للخروج في الهواء الطلق. وقّعت الورقة الأولى. أمّا الثانية، فلم يكن هناك حاجة لتوقيعها، كانت نسخة يترتّب عليّ الاحتفاظ بها. طويتها وغرزتها في جيب سترتي، ثمّ نهضت.

لحق بي. ربّما كان يريدني أن أصعد مرّة ثانية في حافلةٍ لنقل المعتقلين، حيث سأجدها هي من جديد، جالسة على المقعد ذاته كالليلة الماضية؟ في الخارج، في الشارع الصغير المؤدّي إلى رصيف النهر، لم يكن هناك سوى سيّارة واحدة متوقّفة. كان رجل جالساً خلف المقود. وقفت أستجمع الكلمات المناسبة لأودّعه. إن غادرته بشكل مفاجئ، فسوف يعتبر سلوكي مشبوهاً وقد يتبعني من جديد. سألته إذاً من كانت تلك المرأة الليلة الماضية. رفع كتفيه وقال لي إنّني سوف أرى ذلك في «التقرير»، غير أنّه من الأفضل لي وللجميع أن أنسى ذلك الحادث. إنّ «الملفّ

Twitter: @ketab_n

أُغلق» بالنسبة له وإنّه يأمل أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لي. توقّف عندما وصل قرب السيّارة وسألني بنبرة باردة إن لم أكن أجد صعوبة كبيرة في المشي، وإن كنت أودّ أن «يقلّني» إلى مكان معيّن. لا، لا داعي لذلك. صعد عندها بجانب السائق من غير أن يودّعني، صفق الباب بقوّة، وانطلقت السيّارة في اتّجاه رصيف النهر.

*

كان الطقس لطيفاً، هو يوم شتائيّ مشمس. لم يعد لديّ أيّ مفهوم للوقت. لا بدّ أنّنا كنّا بُعيد الظهر. كانت ساقي اليسرى تزعجني قليلاً. أوراق أشجار يابسة على رصيف الطريق. حلمت بأنّني سوف أصل إلى مسلك في الغابة. لم تعد كلمة «إنغادين» تراود ذهني، بل كلمة «سولونيه» الأكثر عذوبة وعمقاً. فتحت المغلّف. كان يحتوي على رزمة من الأوراق الماليّة. من دون أيّ كلمة، ولا أيّ توضيح. تساءلت لمَ هذا المبلغ الطائل من المال. ربّما لاحظَتْ رثاثة سترتي وحذائي الوحيد. قبل هذين الخفّين المشقوقين، كنت أستخدم حذاءين ضخمين بشريط ونعل من المطّاط، أنتعلهما حتّى في الصيف. وها هو ثالث شتاء على

Twitter: @ketab_n

أقلّ تقدير أرتدي فيه تلك السترة القديمة ذاتها. أخرجت من جيبي الجدول الذي وقّعته. كان محضراً، أو بالأحرى تقريراً موجزاً عن الحادث. لم تكن الورقة تحمل في أعلاها أيّ عنوان مطبوع لمركز شرطة ما، ولم تكن تشبه استمارة إداريّة. «... في الليل... سيّارة من نوع فيات لونها أخضر مائيّ... تحمل الرقم... قادمة من حدائق الكاروسيل ومنعطفة في ساحة البيراميد... نُقِل الاثنان إلى ردهة فندق ريجينا... أوتيل ديو، قسم الطوارئ... تضميد السّاق والذراع...» لم تكن الورقة تتضمّن أيّ ذكر لعيادة ميرابو، وتساءلت متى وكيف نقلوني إليها. كان اسمي الكامل مدرجاً في ذلك العرض المقتضب للوقائع، وكذلك تاريخ ولادتي وعنواني السابق. عثروا بالتأكيد على كلّ هذه المعلومات في جواز سفري القديم. كان اسمها الكامل هي مذكوراً: جاكلين بوسِرجان، وعنوانها أيضاً: ساحة ألبوني، لكنّهم غفلوا عن إدراج رقم البناية. لم يسبق لي أن أمسكت بين يديّ بمثل هذا المبلغ الطائل. كنت أفضّل تلقّي كلمة منها، لكن لا بدّ أنّها لم تكن بوضعٍ يسمح لها بالكتابة بعد الحادث. افترضت أنّ الأسمر الجسيم

Twitter: @ketab_n

اهتمّ بكلّ شيء. ربّما كان زوجها. حاولت أن أتذكّر في أيّ لحظة ظهر. كانت وحيدة في السيّارة. بعد ذلك، كان يسير نحونا، في ردهة الفندق، حين كنّا ننتظر جالسَين جنباً إلى جنب على الأريكة. أرادا بالتأكيد تعويضي عن إصابتي، وشعرا بالذنب لمجرّد التفكير بأنّ الحادث كان يمكن أن يكون أخطر بكثير. كان بودّي أن أطمئنهما. لا، لا داعي إطلاقاً للقلق عليّ. كان الظرف الذي يحمل اسم العيادة يحتوي على وصفة موقّعة من «الدكتور بيسّون»، توصي بتغيير «الضمادات» على جروحي بانتظام. عددت الأوراق الماليّة مرّة جديدة. لن أعرف هموماً ماليّة لفترة طويلة. تذكّرت تلك اللقاءات الأخيرة مع والدي وأنا في حوالى السابعة عشرة، حين لم أكن أجرؤ على طلب بعض النقود منه. كانت الحياة فرّقتنا وكنّا نتواعد في مقاهٍ، باكراً في الصباح، حين يكون الظلام لا يزال مخيّماً. كان يرتدي بدلات تزداد طيّاتها رثاثة مرّة بعد مرّة، وكانت المقاهي تبعد أكثر وأكثر في كلّ مرّة عن الوسط. حاولت أن أتذكّر إن كان لاقاني مرّة بالصدفة في ذلك الحيّ حيث كنت أمشي.

Twitter: @ketab_n

أخرجت من جيبي «المحضر» الذي وقّعته. كانت تسكن إذاً في ساحة ألبوني. كنت أعرف ذلك المكان، فأنا نزلت مراراً في محطّة المترو القريبة منه. لا همّ إن كان الرقم غير مذكور. اسم «جاكلين بوسرجان» يكفي وحده لأتدبّر أمري. ساحة ألبوني تلك كانت أبعد بقليل إلى الأسفل، على ضفّة نهر السين. كنت تلك اللحظة في حيّها. لذلك السبب نقلوني إلى عيادة ميرابو. لا بدّ أنّها كانت تعرفها، أجل، هي التي اتّخذت حتماً تلك المبادرة. أو أحد ما من معارفها جاء ليصطحبنا من مستشفى أوتيل ديو. في سيّارة إسعاف؟ قلت لنفسي إنّه عند كشك الهاتف المقبل الذي سأصادفه، سوف أستشير دليل أرقام الهاتف بحسب الشوارع، أو أتّصل بالاستعلامات. لكن لا عجلة في الأمر. أمامي وقت وفير للعثور على عنوانها بالضبط وزيارتها. فهذا مشروع تماماً من جانبي، ولا يمكن أن تستاء منه. لم أدقّ مرّة من قبل على باب أشخاص لا أعرفهم، لكن في تلك الحالة، كان هناك تفاصيل لا بدّ من استيضاحها. أقلّه تلك الرزمة من الأوراق الماليّة في ظرف، بدون أيّ كلمة، مثل صدقة رموا بها إلى متسوّل.

Twitter: @ketab_n

تدهسُ أحداً في الليل بالسيّارة، وترسل له بعض المال، في حال أصيب بإعاقة. بدايةً، لم أكن أريد ذلك المال. لم أعتمد يوماً على أحد، وكنت على قناعة تامّة في تلك الفترة بأنّني لم أكن بحاجة إلى أحد. حتّى والداي لم يقدّما لي يوماً أيّ عون، واللقاءات النادرة التي كان والدي يواعدني عليها في المقاهي كانت تنتهي دائماً بالطريقة ذاتها: كنّا ننهض ونتصافح. ولم أجد مرّةً الشجاعة الكافية لأستجدي منه أدنى مبلغ من المال. خصوصاً قرابة النهاية، عند بوّابة أورليان، حين لم يبقَ له شيء من الاتّقاد والفتنة اللذين كانا لا يزالان يميّزانه على جادّة الشانزليزيه. ذات صباح، لاحظت أنّ معطفه الكحليّ فقدَ بعض أزراره.

خطر لي أن أتبع رصيف السين حتّى ساحة ألبوني. وعند كلّ بناية، سوف أسأل البوّاب في أيّ طابق تقطن جاكلين بوسِرجان. لا بدّ أنّه ليس هناك أرقام كثيرة. تذكّرت كيف شدّت على معصمي، وابتسامتها الساخرة، وكأنّنا متواطئان. من الأفضل أن أتّصل أوّلاً. وألّا أتسرّع. عاودني ذلك الانطباع الغريب الذي راودني أثناء نقلنا في حافلة الشرطة إلى مستشفى أوتيل ديو، الانطباع

Twitter: @ketab_n

بأنّني سبق أن لمحت ذلك الوجه في مكان ما. ربّما يجدر بي أن أبذل بعض الجهد لأتذكّر، قبل الحصول على رقم هاتفها. كانت الأمور لا تزال بسيطة في تلك الفترة، لم يكن القسم الأكبر من حياتي بات خلفي بعد. كان يكفي أن أعود بالزمن بضع سنوات. من يدري؟ ربما صادفَت طريقي امرأة تدعى جاكلين بوسرجان، أو الشخص ذاته باسم آخر. قرأت أنّ الصدفة لا تولّد سوى عدد محدود جدّاً من اللقاءات. المواقف ذاتها والوجوه ذاتها تعود، لكأنّها شظايا الزجاج الصغيرة الملوّنة في مشكال، مع لعبة المرآة تلك التي توهم بأنّ تركيبة الظروف يمكن أن تتبدّل إلى ما لا نهاية. لكن الواقع أنّها محدودة، تلك التركيبات. أجل، لا بدّ أنّني قرأت ذلك في مكان ما، أو أنّ الدكتور بوفيير شرحه لنا ذات مساء في أحد المقاهي. غير أنّه كان من الصعب عليّ أن أركّز تفكيري طويلاً على هذه المسائل، لم أشعر يوماً بميول فلسفيّة. فجأةً لم أعد أرغب في عبور جسر غرونيل، الانتقال إلى الضفّة اليسرى والعودة عبر خطّ مترو أو باص إلى غرفتي في شارع فوا فيرت. أردت البقاء والتسكّع قليلاً في هذه الناحية. لا بدّ لي أن أعتاد على

Twitter: @ketab_n

المشي بالضمادات على ساقي. كان إحساس طيّب يغمرني هناك، في حيّ جاكلين بوسرجان. حتّى الهواء فيه بدا لي أكثر خفّة على أنفاسي.

Twitter: @ketab_n

كنت أقطن منذ نحو سنة قبل الحادث في الفندق في شارع فوا فيرت، من ناحية بوّابة أورليان. وددت لوقت طويل أن أنسى تلك الحقبة من حياتي، أو ألّا أذكر منها سوى التفاصيل غير المهمّة ظاهريّاً. كان هناك على سبيل المثال رجل ألاقيه مراراً قرابة الساعة السادسة مساء، وهو عائد على الأرجح من عمله. لم أعد أذكر منه سوى حقيبة صغيرة سوداء ومشيته البطيئة. ذات مساء، في المقهى الكبير المواجه للمدينة الجامعيّة، شرعت بمحادثة جاري الذي ظننته طالباً. لكنّه كان يعمل في وكالة سفريّات. كان من مدغشقر، وعثرت على اسمه مع رقم هاتف على بطاقة، بين أوراق قديمة أردت التخلّص منها. كان يدعى كاتز كرويتزر. لا أعرف عنه شيئاً. تفاصيل أخرى... كان

Twitter: @ketab_n

أولئك على الدوام أشخاصاً لاقيتُهم وبالكاد لمحتُهم، وسوف يبقون لغزاً بالنسبة لي. أماكن أيضاً... مطعم صغير كنت أتناول فيه العشاء أحياناً مع والدي، صوب أعلى جادّة فوش، إلى اليسار، وقد بحثت عنه عبثاً فيما بعد، وأنا أعبر بالصدفة في الحيّ. هل كان ذلك حلماً؟ بيوت ريفيّة عند أشخاص غابت عنّي أسماؤهم، بالقرب من قرى لن يكون بوسعي تحديدها على الخارطة؛ فتاة تدعى إيفلين التقيت بها في قطار ليليّ... حتّى أنّني بدأت بوضع قائمة - مع التواريخ التقريبيّة - بكلّ تلك الوجوه والأماكن النائية، وتلك المشاريع التي تخلّيت عنها: في أحد الأيّام، قرّرت الانتساب إلى كليّة الطبّ، لكنّ ذلك القرار لم يصمد طويلاً. وإذ كنت أجهد لاستذكار كلّ ما لم يكن له مستقبل بالنسبة لي وبقي عالقاً، كنت أبحث عن ثغرة، عن خطوط انفلات. الواقع أنّني أصبحت على عتبة السنّ التي تنغلق فيها الحياة شيئاً فشيئاً على نفسها.

أحاول استرجاع الألوان والأجواء الخاصّة بذلك الفصل التي كنت فيها أقطن قرب بوّابة أورليان. ألوان رماديّة وسوداء، أجواء تبدو لي بعد مرور الزمن خانقة،

Twitter: @ketab_n

خريف وشتاء دائمان. أكانت الصدفة هي التي جعلتني أنتهي في المنطقة التي حدّد لي والدي فيها موعدنا الأخير؟ في تمام الساعة السابعة صباحاً، مقهى «لا روتوند»، عند أسفل أحد تلك المباني من حجر الآجر التي تشكّل مجمّعات وترسم حدود باريس. هناك تقع مونروج وجزء من الطريق المحيطيّ الذي كانوا شقّوه للتوّ. لم يكن لدينا أمور كثيرة يقولها أحدنا للآخر، وكنت على يقين بأنّنا لن نلتقي من جديد بعد ذلك. نهضنا، ومن غير أن نتصافح، خرجنا معًا من مقهى «لا روتوند». فوجئت برؤيته يبتعد في معطفه الكحليّ صوب الطريق المحيطيّ. ما زلت حتّى الآن أتساءل إلى أيّ ضاحية نائية كانت خطاه تقوده. أجل، تلك المصادفة تذهلني اليوم: أن أكون سكنت لفترة من الزمن في ذلك الحيّ حيث كنّا نلتقي، في المرّات الأخيرة. لكنّني لم أفكّر في الأمر على الإطلاق حينها. كانت أمور أخرى تشغل بالي.

Twitter: @ketab_n

الدكتور بوفيار أيضاً كان وجهاً من الوجوه العابرة في تلك الحقبة. أتساءل إن كان لا يزال على قيد الحياة. ربّما وجد باسم آخرَ تلاميذ جدداً في مدينة ريفيّة. مساء أمس، تملّكتنيٍ نوبة ضحك عصبيّة وجَدْت صعوبة في كبتها لذكرى ذلك الرجل. هل وُجِدَ حقّاً؟ ألم يكن سراباً وليد قلّة النوم، أو الوجبات التي اعتدت تفويتها والعقاقير الفاسدة التي كنت أبتعلها؟ كلّا. ثمّة الكثير من التفاصيل، الكثير من العلامات التي تثبت لي أنّه في تلك الفترة، كان ثمّة شخص يدعى الدكتور بوفيار عقدَ فعلاً جلسات في مقاهي الدائرة الرابعة عشرة من باريس.

تقاطعت طريقانا قبل بضعة أشهر من تعرّضي لذلك الحادث. ولا بدّ لي من الاعتراف بأنّه في مستشفى

Twitter: @ketab_n

أوتيل ديو، حين وضعوا الكمامة السوداء على وجهي حتّى أستنشق الأثير وأغفو، خطر لي بوفيار بسبب لقب «الدكتور» الملازم له. أجهل ما كان يشير إليه ذلك اللّقب، إن كان من رتبه الجامعيّة أم اكتسبَه بعد دروس في الطبّ. أعتقد أن بوفيار كان يستغلّ هذا الغموض ليوحي بأنّ «تعليمه» يغطّي مجالات واسعة، بما فيها الطبّ.

أوّل مرّة التقيت به، لم يكن ذلك في ناحية مونبرناس حيث كان يعقد جلساته. بل كان في الطرف الآخر من باريس، على الضفّة اليمنى. تحديداً عند تقاطع شارعَي بيغال ودوَيه، في ذلك المقهى الذي كان يعرف بمقهى «سان سوسي». لا بدّ لي أن أوضّح ما كنت أفعله هناك، على أن أعود ربّما في أحد الأيّام لتناول هذا الموضوع بشكل مطوّل أكثر. كنت أتردّد على بعض أحياء باريس، على غرار كاتب فرنسيّ ملقّب بـ «المُشاهد الليليّ». في الليل، كان يُخيّل لي في الشوارع أنّني أحيا حياة ثانية أكثر تشويقاً من الأخرى، أو أنّني بكلّ بساطة أحلمها.

كان الوقت قرابة الثامنة مساء، في الشتاء، ولم يكن هناك زحمة من حولي. لفت انتباهي رجل وامرأة جالسان

Twitter: @ketab_n

إلى إحدى الطاولات: هو أربعينيّ، شعره قصير فضيّ، وجهه بارز العظام وعيناه فاتحتا اللّون. لم يخلع معطفه. هي شقراء بعمره. بدت شاحبة من شدّة نحولها، لكنّ ملامحها كانت تعكس قسوة. كانت تكلّمه بصوت خفيض، أقرب إلى صوت رجل، والجمل القليلة التي كانت ترد إلى مسامعي بين الحين والآخر بدت وكأنّها تقرأها، من شدّة ما كان نطقها واضحاً قاطعاً. لكن ثمّة في مظهرها ما كان ينسجم بشكل جيّد مع حيّ بيغال في تلك الحقبة. أجل، افترضت في بادئ الأمر أنّ ذلك الزوج كان يمتلك أحد الملاهي الليليّة في الجوار. أو بالأحرى هي وحدها، كما خطر لي. الأرجح أنّ الرجل كان يبقى على حياد. كان يستمع إلى كلامها. أخرج من جيبه حمّالة سجائر، ولفتني تكلّفه وهو يضعها بين شفتيه ويقوم بحركة طفيفة بذقنه. بعد وقت، نهضت المرأة وقالت له بصوتها المميّز، مشدّدة على كلّ مقطع لفظيّ على حدة: «في المرّة المقبلة، عليك أن تتذكّر عبواتي»، وتلك الجملة أثارت فضولي. لفظتْها بنبرة حادّة، تكاد تكون محقِّرة، وهزّ الرجل رأسه موافقاً بوداعة. ثمّ غادرت المقهى بمشية واثقة، من غير أن تلتفت

Twitter: @ketab_n

خلفها، وبدا هو مستاءً. تبعْتُها بنظري. كانت ترتدي معطفاً واقياً من المطر مبطّناً بالفرو. سلكت شارع فيكتور ماسّيه، على الرصيف الأيسر، وتساءلتُ إن كانت ستدخل ملهى تاباران. لكنّها لم تفعل. توارت. ربّما في الفندق إلى الأسفل قليلاً؟ الواقع أنّه كان من الممكن أن تدير فندقاً، أو ملهًى أو حتّى محلّ عطور، لا فرق. أمّا هو، فبقي جالساً إلى طاولته، مطأطئ الرأس، ساهماً، وحمّالة السجائر تتدلّى من طرف شفتيه، وكأنّه تلقّى ضربة للتوّ. بدا وجهه في نور مصباح النيون مكسواً بوشاح من العرق وبنوع من الشحم الرماديّ لاحظته لدى الرجال الذين يعانون من النساء. نهض بدوره. كان طويل القامة، متحدّب الظهر قليلاً. رأيته من خلال النافذة ينحدر في شارع بيغال بمشيةٍ مسرنم. ذلك كان لقائي الأوّل مع الدكتور بوفيار.
اللقاء الثاني حصل بعد حوالى عشرة أيّام، في مقهى آخر من ناحية دانفير روشرو. باريس مدينة شاسعة، لكن أعتقد أنّ من الممكن أن نلاقي فيها الشخص نفسه مراراً، وفي أغلب الأحيان في الأماكن التي يبدو ذلك فيها من أصعب ما يكون: المترو، الجادّات... مرّة، مرّتين، ثلاث

Twitter: @ketab_n

مرّات، وكأنّ القدر - أو الصدفة - يصرّ، مصمّماً على افتعال لقاء وتسيير حياتنا في وجهة جديدة، لكنّنا غالباً ما لا نستجيب للنداء. ندع ذلك الوجه يعبر، وجه سيبقى إلى الأبد مجهولاً، ويبعث ذلك فينا شعوراً بالارتياح، وكذلك بالندم.

دخلْتُ ذلك المقهى لشراء سجائر، وكان هناك صفّ انتظار أمام منضدة الشّرب. ساعة الجدار في القعر كانت تشير إلى السابعة مساء. تحتها لمحت بوفيار، جالساً إلى طاولة، في وسط مقعد مغلّف بالمولسكين الأحمر. كان محاطاً بجمع من الأشخاص، لكنّهم كانوا جالسين على كراسٍ. وحده بوفيار كان جالساً على المقعد، وكأنّ تلك الجلسة المريحة هي التي تليق بمقامه. لا أثر للشحم الرماديّ والعرق على وجهه، وحمّالة السجائر لم تعد متدلّية عند طرف شفتيه. لم يعد الرجل نفسه. هذه المرّة، كان يتكلّم، لا بل بدا كأنّه يلقي محاضرة كان الآخرون ينصتون لها بورع. كان أحدهم يدوّن ملاحظات في دفتر مدرسيّ كبير. فتيات وفتيان. لا أدري أيّ فضول تملّكني، الرغبة حتماً في ذلك المساء في الردّ على السؤال الذي كان يراودني:

Twitter: @ketab_n

كيف يمكن لرجل أن يتغيّر إلى هذا الحدّ، بمقتضى كونه في بيغال أو دانفير روشرو؟ لطالما كان لأسرار باريس وقع شديد في نفسي.

جلست إلى الطاولة المجاورة لطاولتهم، واخترت المقعد لأكون أقرب إلى بوفيار. لاحظت أنّهم تناولوا جميعاً القهوة، وطلبت بدوري فنجان قهوة. لم يعرني أيّ منهم اهتماماً. لم يقطع بوفيار كلامه حين جررت الطاولة. تعثّرت بإحدى قوائمها وهويت على المقعد، بجانبه. كنت أنصت له بانتباه، لكنّني وجدت صعوبة في فهم ما يقول. بعض الكلمات لم يكن لديها المعنى ذاته في فمه كما في الحياة العاديّة. دهشت لرؤية مدى سطوته على جمهوره. كانوا جميعهم يتلقّفون كلامه، والفتى ذو الدفتر المدرسيّ الكبير لم يكن يتوقّف عن تدوين رؤوس أقلام مختزلة. كان يثير ضحكهم بين الحين والآخر، بملاحظات غامضة مشفّرة لا بدّ أنّها كانت تتردّد كثيراً في حديثه، مثل كلمات سرّ. إن وجدْتُ الشجاعة الكافية، فسوف أحاول أن أتذكّر العبارات التي كانت تطبع تعاليمه بشكل خاصّ. لم أكن أتجاوب مع الكلمات التي يستخدمها. لم يكن لها أيّ صدى

Twitter: @ketab_n

ولا أيّ وميض في نفسي. رنينها في ذاكرتي بات هزيلاً وموحشاً مثل نوتات بيانو قيثاريّ. وعلى أيّة حال، فما دام لم يعد بوسع صوت الدكتور بوفيار إبرازها، لم يبق منها سوى كلمات هامدة، يصعب عليّ إدراك معناها. أعتقد أنّ بوفيار كان يستعيرها إلى حدّ ما من التحليل النفسيّ وفلسفات الشرق الأقصى، لكنّني لا أودّ المغامرة كثيراً وخوض مجالات لا أعرف عنها إلّا النزر اليسير.

التفتَ صوبي في نهاية المطاف، ولاحظ وجودي. لم يكن يراني في بادئ الأمر، ثمّ طرح سؤالاً على جمهوره، من نوع: «تفهمون ما أعنيه، أليس كذلك»، وهو يحدّق بي. خيّل لي في تلك اللحظة أنّني أذوب في المجموعة، وتساءلت إن كان بوفيار يميّز بيني وبين الآخرين. كنت واثقاً من أنّه في ذلك المقهى، حول الطاولة ذاتها، كان جمهوره يتجدّد، وإن كان هناك حفنة من الأتباع الأوفياء -حرس مقرّبون-، فإنّ مجموعات مختلفة كانت تتعاقب بالتأكيد في كلّ مساء من أيّام الأسبوع. قلت لنفسي إنّ كلّ هذه الوجوه، كلّ هذه المجموعات، تختلط عليه كتلة واحدة. وجه بالزائد أو بالناقص... في مطلق الأحوال، كان يبدو في لحظات

Twitter: @ketab_n

وكأنّه يخاطب نفسه، وكأنّه لم يعد سوى ممثّل مسترسل في مونولوغ أمام جمهور بلا وجوه... وحين يشعر أنّ الانتباه من حوله على أشدّه، كان يمجّ نفساً عميقاً من حاملة سجائره إلى أن تتجوّف وجنتاه، وبدون أن ينفث الدخان، كان ينقطع بضع ثوان عن الكلام ليتثبّت من أنّ أنظارهم جميعهم مشدودة حقّاً إليه. في ذلك المساء الأوّل، وصلتُ قرابة نهاية الجلسة. بعد ربع ساعة، صمت ووضع على ركبتيه حقيبة رقيقة سوداء، أنيقة الطراز - من النوع الذي يمكن شراؤه لدى متاجر المنتجات الجلدية الفاخرة في شارع فوبور سانت أونوريه. أخرج منها مفكّرة ذات غلاف جلديّ أحمر. تصفّحها. قال لجاره الأقرب إليه، فتىً له وجه الباشق: «يوم الجمعة المقبل في مقهى زايير الساعة الثامنة». فدوّن الشاب ذلك على كرّاس صغير. يظهر جليّاً من الوهلة الأولى أنّه يقوم مقام سكرتير له، وافترضت أنّه مكلّف بإرسال دعوات. نهض بوفيار ملتفتاً إليّ مرّة جديدة. بادرني بابتسامة مطَمْئِنة، ربّما ليشجّعني على حضور اجتماعاتهم من يومذاك فصاعداً. أبِصفتي مستمعاً حرّاً؟ نهض الآخرون دفعة واحدة. تبعتُ الحركة

Twitter: @ketab_n

العامّة. في الخارج، في ساحة دانفير روشرو، كان واقفاً في وسط المجموعة، يخصّ كلّ واحد بكلمة، مثل أساتذة الفلسفة أولئك، البوهيميّين بعض الشيء، الذين يعتادون تناول كأس مع أبرع تلاميذهم بعد انتهاء الدروس وحتّى ساعة متأخّرة من الليل. وكنت أنا بين المجموعة. رافقوه إلى سيّارته. كانت فتاة شقراء سبق أن لاحظتُ وجهها النحيل والصارم، تمشي بجانبه، وبدا أنّ علاقته بها أكثر حميميّة منها مع الآخرين. كانت ترتدي معطفاً واقياً من المطر بلون معطف المرأة في بيغال، لكنّ معطفها هي لم يكن مبطّناً بالفرو. وفي ذلك المساء، كان الطقس بارداً. أمسك بذراعها في لحظة ما، من غير أن يستغرب الآخرون الأمر. حين وصلا إلى السيّارة، تبادلا بضع كلمات. بقيْتُ على مسافة ضئيلة. حين رفع حمّالة السجائر إلى شفتيه، لم تكن حركته بالتكلّف الذي لفتَني في بيغال. بل بالعكس أعطته حمّالة السجائر مسحةً حربيّة: كان محاطاً برئاسة أركانه، وهو يوزّع عليها آخر تعليماته. كانت الفتاة ذات المعطف الواقي من المطر تقف بقربه إلى حدٍّ أنْ كانت كتفاهما تتلامسان. كان وجهها يزداد صرامةً، لكأنّها كانت تريد

Twitter: @ketab_n

أن تبقي الجميع على مسافة وتوضح لهم أنّها تحظى بمكانة مميّزة لديه.

صعد في السيّارة مع تلك الفتاة التي صفقت الباب. انحنى من النافذة وهو يلوّح بذراعه مودّعاً المجموعة، لكن بما أنّه كان يحدّق بي في تلك اللحظة بعينيه الصافيتين، خلتُ أنّه كان يخصّني بتلك الإشارة دون سواي. كنت واقفاً على حافة الرصيف وانحنيت صوبه. رمقتني الفتاة بوجه متجهّم. كان يستعدّ للانطلاق. تملّكني إحساس بالدوار. وددت أن أطرق على الزجاج وأقول لبوفيار: «هل تذكّرت العبوات؟» من شدّة ما أثارت تلك الجملة فضولي ليلتها في بيغال. شعرت بالخيبة لفكرة أن تبقى لغزاً عليّ، من بين الكثير من الكلمات الأخرى التي تقع في الأذن والكثير من الوجوه التي نلمحها للحظة، والتي تسطع في ذاكرتنا ببريق نجمة نائية، قبل أن تنطفئ يومَ نطفئ، من غير أن تكشف لنا سرّها.

بقيْتُ هناك على الرصيف، في وسط المجموعة. شعرت بالارتباك. لم أدرِ ما أقول لهم. في النهاية، ابتسمت للشابّ ذي وجه الباشق. ربّما كان على اطّلاع أكثر من الآخرين.

Twitter: @ketab_n

سألته بشيء من الفظاظة مَن تكون تلك الفتاة التي غادرت في السيّارة مع بوفيار. أجابني بصوت هادئ ورخيم، دون أن يبدي أيّ دهشة، أنّها تدعى جنفياف. جنفياف دالام.

Twitter: @ketab_n

أحاول أن أتذكّر ما الذي كنت أفعله ليلة الحادث، في مثل ذلك الوقت المتأخّر، في ساحة البيراميد. لا بدّ لي أن أوضح أنّني في تلك الفترة، كانت تغمرني سعادة كلّما أغادر أحياء الضفّة اليسرى، وكأنّه يكفي أن أعبر نهر السين حتّى أستفيق من خمولي. فجأة يصبح الهواء مشحوناً بالكهرباء. سوف يحصل لي أمرٌ ما أخيراً.

لا شكّ أنّني أعلّق أهميّة أكبر ممّا ينبغي على جغرافية الأماكن. غالباً ما تساءلت لماذا انتقلت المواقع التي كنت ألتقي فيها بوالدي شيئاً فشيئاً خلال بضع سنوات من الشانزليزيه إلى بوّابة أورليان. أذكر حتّى أنّني فرشت خارطة لباريس في غرفة الفندق الذي كنت أنزل فيه في شارع فوا فيرت. كنت أرسم إشارات بقلم الحبر الأحمر،

Twitter: @ketab_n

تكون لي بمثابة نقاط مرجعيّة. بدأَت المسألة برمّتها في منطقة تتوسّطها ساحة ليتوال[1]، وتتفرّع منها منافذ إلى الغرب، صوب غابة بولونيا. وبعدها جادّة الشانزليزيه. انزلقنا بشكل طفيف عبر ساحة مادلين والجادّات الكبرى، صوب حيّ الأوبرا. ثمّ انحدرنا أكثر، نحو القصر الملكيّ: بقيت لبضعة أشهر – الوقت الكافي لأظنّ أنّه وجد في ترحاله هذه المرّة مستقرّاً له – ألاقي والدي في مقهى «روك أونيفير». كنّا ندنو من حدود كنت أجهد لتحديدها على الخارطة. من مقهى «روك»، انتقلنا إلى مقهى «كورونا»، عند زاوية ساحة سان جرمان لوكسيروا ورصيف اللوفر. أجل، بدا لي أنّ الحدود كانت هناك. كان يحدّد لي دائماً موعداً في «كورونا»، قرابة التاسعة مساء. كان المقهى على وشك الإغلاق. لم يعد هناك في تلك الساعة حركة سير كثيفة على رصيف النهر وكنّا نسمع ساعة سان جرمان لوكسيروا تدقّ كلّ ربع ساعة. هناك لاحظت لأوّل مرّة البذلة البالية، وأزرار المعطف الكحليّ الناقصة. لكنّ الحذاء كان ملمّعاً بشكل متقن. لا يسعني القول إنّه

(1) ساحة النّجمة.

Twitter: @ketab_n

كان يشبه موسيقيّاً عاطلاً عن العمل. لا، بل بالأحرى واحد من أولئك «المغامرين» بعد قضاء فترة في السجن. كانت الأشغال تزداد صعوبة. ولّى تألّق الشباب وخفّته. من سان جرمان لوكسيروا، رسَونا عند بوّابة أورليان. ثمّ لمرّة أخيرة، رأيت ظلّه يتوارى في صبيحة ضبابيّة من تشرين الثاني - ضباب أصهب - من ناحية مونروج وشاتيون. كان يسير مباشرة في اتّجاه تلك البلدتين اللّتين تحتوي كلّ منهما على قلعة كانوا يرمون الناس فيها بالرصاص عند الفجر. حصل لي غالباً بعد فترة من الزمن أن تبعت الطريق ذاته في الاتّجاه المعاكس. في نحو الساعة التاسعة مساء، كنت أغادر الضفّة اليسرى عابراً السين عند جسر ليزار[1]، لأجد نفسي في مقهى «كورونا». لكنّني تلك المرّة، كنت جالساً وحيداً إلى إحدى طاولات القعر، ولم أعد بحاجة إلى التنقيب بحثاً عمّا أقوله لذلك الرجل المريب في معطفه الكحليّ. بدأ يغمرني إحساس بالارتياح. تركت خلفي، في الجانب الآخر من النهر، منطقة موحلة كنت أغوص في برَكها. خطوت على الأرض اليابسة. هنا،

(1) جسر الفنون.

Twitter: @ketab_n

الأنوار أكثر تألّقاً. كنت أسمع أزيز مصابيح النيون. بعد قليل، سأمشي في الهواء الطلق، على طول القناطر، حتّى ساحة الكونكورد. سيكون الليل عذباً وصامتاً. المستقبل منبسط أمامي. كنت وحيداً في مقهى «كورونا»، وكنت أسمع دقّات ساعة سان جرمان لوكسيروا كلّ ربع ساعة.
لم يسعني سوى أن أفكّر في الاجتماعات القليلة لبوفيار وتلاميذه التي حضرتها في الأسابيع السابقة. أجل، كانت تجري دائماً في مقاه، في محيط دانفير روشرو. إلّا ذات مساء، جرى فيه الاجتماع إلى الأسفل، في شارع أليزيا، في مقهى «ترمينوس» الذي كنت لاقيت والدي فيه أحياناً. في ذلك المساء، تصوّرت لقاء بينه وبين بوفيار. عالمان مختلفان تماماً. بوفيار، موزّعاً تعاليمه بقدر من التكلّف والادّعاء، مثقلاً بالشهادات ومتحصّناً خلف مكانة «الدكتور» والمرشد الفكريّ. ووالدي، بطباعه الأقرب إلى المغامرة، والذي لم يعرف سوى مدرسة واحدة هي مدرسة الشارع. كلاهما محتال، كلّ بأسلوبه.

في المرّة الأخيرة، وزّع بوفيار عدّة مطبوعات دراسيّة، وعلمت من الفتى ذي وجه الباشق أنّها دروس يعطيها

Twitter: @ketab_n

في جامعة أو في معهد للدراسات العليا لم أعد أذكر اسمه بالضبط. كانوا جميعهم يحضرونها، لكنّني من جهتي لم أكن أرغب إطلاقاً في الجلوس على مقاعد مدرسة، في الصفّ، بين الطلّاب الآخرين. المدارس الداخليّة والثكنة العسكريّة كانت كافية لي. في المساء الذي وزّع خلاله الباشق الأوراق المطبوعة، فيما كان بوفيار يجلس على مقعد المولسكين، أشرت إليه، بحركة متكتّمة بيدي، بأنّني لم أكن بحاجة إليها. رمقني الباشق بنظرة لوم. لم أشأ أن أحزنه، فتناولت منه الدروس المطبوعة. حاولت لاحقاً قراءتها في غرفتي، ولم أستطع تخطّي الصفحة الأولى. كنت إخال أنّني لا أزال أسمع صوت بوفيار. لم يكن صوتاً ذكورياً، ولا أنثويّاً، كان ثمّة شيء رتيب في ذلك الصوت، شيء بارد وأملس، لا سلطة له عليّ إطلاقاً، لكن لا بدّ أنّه ينسلّ ببطء إلى الآخرين، يبعث فيهم ما يشبه الشلل، ويضعهم تحت سطوة ذلك الرجل. عادت إلى ذاكرتي قسمات وجهه كما رأيته بعد ظهر اليوم السابق، بدقّة صورة فوتوغرافيّة: أعلى الوجنتين، عينان دقيقتان فاتحتا اللون غائرتان في محجريهما. جمجمة بشريّة. شفتان مكتنزتان مرتسمتان

Twitter: @ketab_n

بوضوح محيّر، وصوت في غاية البرودة والرتابة...

أذكر أنّه كان هناك في تلك الفترة جمجمات أخرى شبيهة بجمجمته، بعض المرشدين الفكريّين، وطوائف يبحث فيها الناس ممّن هم بعمري عن عقيدة سياسيّة، مذهب شديد الصرامة، قائد أعلى يتعبّدون له جسداً وروحاً. لم أعد أعرف تحديداً كيف تمكّنت من الإفلات من تلك المخاطر. كنت عرضة لها، شأني شأن الآخرين. لم يكن هناك ما يميّزني حقّاً عن كلّ هؤلاء المستمعين التائهين الذين كانوا يتجمّعون حول بوفيار. كنت بحاجة أنا أيضاً لقناعات راسخة. أيّ معجزة منعتني من الوقوع في الفخّ؟ إنّني مدين بذلك لخمولي واستهتاري. وربّما أيضاً لذهني الماديّ العمليّ الذي كان يجعلني أتمسّك بالتفاصيل الحسيّة. أجل، ذلك الرجل كان يضع ربطة عنق زهريّة. وعطر تلك المرأة كان ينطوي على مسحة من المسْك الروميّ. كانت الجادّة كارنو تنحدر نزولاً. هل لاحظتم أنّه في بعض الشوارع، عند العصر، ينصبّ نور الشمس مباشرة في عيونكم؟ كانوا يخالونني أبله.

*

Twitter: @ketab_n

كنت سأخيّب أملهم كثيراً لو أنّي اعترفت لهم بأحد الأسباب التي كانت تجعلني أحضر اجتماعاتهم. رصدت بينهم شخصاً بدا لي مثيراً للاهتمام أكثر من الآخرين. فتاة تدعى هيلين نافاشين. سمراء عيناها زرقاوان. كانت الوحيدة التي لا تدوّن رؤوس أقلام. الشقراء التي تلازم بوفيار مثل ظلّه كانت تراقبها بريبة، وكأنّها يمكن أن تكون خصماً، رغم أنّ بوفيار لم يكن يعيرها أيّ اهتمام في أيّ وقت. هيلين نافاشين تلك لم تكن تعرف على ما بدا لي أيّاً من أفراد مختلف المجموعات، ولم تكن تكلّمهم إطلاقاً. عند انتهاء الجلسات، كنت أراها تغادر وحيدة، تعبر الساحة وتختفي في مدخل نفق المترو. ذات مساء، وضعَت في حضنها دفتراً للنظريّة الموسيقيّة. سألتها بعد الاجتماع إن كانت تعزف الموسيقى، ومشينا جنباً إلى جنب. كانت تعطي دروساً في البيانو لكسب عيشها، لكنّها كانت تأمل في الدخول إلى الكونسرفاتوار.

تبعتها في ذلك المساء في المترو. قالت لي إنّها تسكن

Twitter: @ketab_n

بالقرب من غارْ دو ليون[1]، واختلَقْتُ موعداً في ذلك الحيّ من أجل أن أرافقها حتّى وجهتها. بعد سنوات من ذلك، على خطّ المترو الجوّيّ ذاته، بين دانفير وساحة إيطاليا، أملت للحظة أن يكون الزمن زال وأنّني سأجد نفسي جالساً على المقعد بجانب هيلين نافاشين. تملّكني عندها إحساس جامح بالفراغ، وقلت في نفسي، حتّى أُهدّئ من روعي، إنّ ذلك ناجم عن عبور المترو فوق الجادّة وصفوف المباني. وإنّه ما إن يهبط الخطّ تحت الأرض من جديد، حتّى يفارقني ذلك الشعور بالدوار والغياب. سوف يعود كلّ شيء إلى طبيعته، وسط رتابة الأيّام المتعاقبة الواحد تلو الآخر، رتابة تبعث الطمأنينة. في ذلك المساء، لم يكن هناك أحد تقريباً حولنا في المقصورة. كان الوقت بعد ساعة الزحمة بكثير. سألتها لماذا تحضر اجتماعات بوفيار. كانت قرأتْ من غير أن تعرفه مقالاً له عن الموسيقى الهندوسيّة، فتح لها آفاقاً جديدة، لكنّ الرجل خيّب أملها قليلاً، ولم تجد «تعاليمه» بمستوى ذلك المقال. بوسعها أن تدعني أقرأه إن شئت.

(1) محطّة ليون لسكك الحديد بباريس.

Twitter: @ketab_n

وأنا، أيّ درب قادني إلى مجموعات دانفير روشرو؟ مجرّد الفضول. كان الدكتور بوفيار يحيّرني. بودّي أن أعرف المزيد عنه. ماذا يمكن أن تكون عليه حياة شخص مثل الدكتور بوفيار؟ ابتسمَتْ. هي أيضاً راودها السؤال ذاته. يبدو للوهلة الأولى أنّه لم يتزوّج يوماً وأنّه يستلطف بعض تلميذاته. لكن هل كان يميل إليهنّ حقّاً؟ كنّ يتشابهن على الدوام: شاحبات، شقراوات، مظهر صارم يذكّر بفتيات مسيحيّات، على شفير التصوّف. أزعجها الأمر في البداية. خُيّل لها أنّ بعض الفتيات كنّ ينظرن إليها خلال الاجتماعات بازدراء، وأنّها لم تكن على انسجام معهنّ. إذاً، قلت لها، فمن المقدّر لنا أن نتفاهم. أنا أيضاً لم أشعر يوماً أنّني على انسجام مع أيّ شيء. خطر لي أنّها تشبهني حتماً، تائهة قليلاً في باريس، بدون روابط عائليّة، تبحث عن محور يعطي وجهة لحياتها، وتلاقي بين الحين والآخر أشخاصاً كالدكتور بوفيار. ثمّة تفصيل لدى بوفيار أدهشنا كثيراً. ففي أحد اجتماعات الأسبوع الماضي، كان وجهه متورّماً، وكأنّ أحداً أوسعه ضرباً: عين محاطة بدائرة مزرورقة وكدمات على أنفه وحول عنقه. لم يأت

Twitter: @ketab_n

على ذكر ما حصل له، وللتمويه على المسألة، أبان عن براعة تفوق المعتاد. راح يحاور الحضور ويسألنا مراراً وتكراراً إن كان كلّ ما يقوله واضحاً بالنسبة لنا. وحده السكرتير ذو وجه الباشق والشقراء الرقيقة البشرة كانا شاخصين إليه بعيون قلقة طوال محاضرته. وعند انتهائها، وضعت الشقراء كمّادة على وجهه، واستسلم لها مبتسماً. لم يجرؤ أحد على طرح سؤالٍ عليه. ألا تجد الأمر غريباً بعض الشيء؟ سألتني هيلين نافاشين بنبرة هادئة وخائبة، نبرة الذين فقدوا أوهامهم ولم يعد هناك ما يمكن أن يدهشهم حقّاً منذ طفولتهم. كدت أكلّمها عن المرأة التي رأيتها مع بوفيار في بيغال، لكن لم يكن بوسعي تصوّرها تشبعه ضرباً على هذا النحو. ولا أيّ امرأة أخرى في الواقع. لا، لا بدّ أنّ المسألة كانت أكثر وحشيّة وغموضاً. كان ثمّة جانب مظلم في حياة الدكتور بوفيار، ربّما سرّ يعتبره معيباً. هززت كتفيّ وقلت لهيلين نافاشين إنّ ذلك سرّ من أسرار باريس.

كانت تقطن في مجموعات المباني الضخمة المقابلة لغارْ دو ليون. شرحْتُ لها أنّني وصلت قبل ساعة من موعدي. كان بودّها استقبالي في منزلها لتجنيبي الانتظار في الخارج،

Twitter: @ketab_n

لكنّ والدتها ما كانت لتتقبّل للأسف أن تجلب أحداً بشكل مباغت إلى شقّتهما الصغيرة في الرقم 5 من شارع إيميل جيلبير.

*

التقيت بهيلين نافاشين من جديد في الاجتماع التالي. كانت الكدمات زالت تقريباً عن وجه الدكتور بوفيار، ولم يعد يضع سوى شريط لاصق على خدّه الأيسر. لن نعرف يوماً من الذي أوسعه ضرباً. لن يبوح بذلك. حتّى الفتاة الشقراء التي كانت تصعد معه في كلّ مرّة في سيّارته لن تعرف شيئاً عن المسألة، كنت واثقاً من ذلك. الرجال يموتون كاتمين سرّهم.

في ذلك المساء، سألْتُ هيلين نافاشين ما الذي كان يثير اهتمامها إلى هذا الحدّ في الموسيقى الهندوسيّة. كانت تستمع غالباً إلى هذه الموسيقى على ما شرحت لي، لتزيل عن صدرها عبئاً كان يرهقها وتبلغ فسحة حيث يمكنها أخيراً استنشاق هواء صافٍ ورقيق. ثمّ إنّها موسيقى صامتة. كانت بحاجة إلى هواء عذب وإلى صمت. كنت أوافقها الرأي. رحت أرافقها إلى دروس البيانو التي

Twitter: @ketab_n

كانت تعطيها. كانت تجري بمعظمها في الدائرة السابعة. كنت أنتظرها وأنا أتمشّى، وفي ما بعد الظهائر الماطرة أو المثلجة، ألجأ إلى أقرب مقهى من المبنى الذي تلجه. كان الدرس يستغرق ساعة. وكانت تعطي ثلاثة دروس أو أربعة في اليوم. فأجدني في تلك الفترات وحيداً بمحاذاة مباني المدرسة العسكريّة المهجورة. كنت أخشى أن أفقد ذاكرتي وأتيه من غير أن أجرؤ على الاستعلام عن طريقي. كان المارّة نادرين، وأيّ طريق يمكنني أن أسأل عنه؟ تملّكني الذعر مرّة في ما بعد ظهيرة، في نهاية جادّة سيغور، عند أطراف الدائرة الخامسة عشرة. خيّل لي أنّني أذوب في ذلك الضباب الذي كان ينذر بتساقط الثلج. وددت لو يمسكني أحد بذراعي ويقول لي كلاماً مطَمْئناً: «لا بأس، لا عليك يا صديقي... لا بدّ أنّك بحاجة إلى بعض النوم... اذهب وتناول كأساً من الكونياك... هذا عارض عابر...» كنت أحاول التشبّث بتفاصيل صغيرة ملموسة. قالت لي إنّها في دروس البيانو، لم تكن تعقّد مهمّتها. تعلّمهم المقطوعة ذاتها دائماً. كانت مقطوعة «البوليرو» للمؤلّف هوميل. عزفتها لي ذات مساء على

Twitter: @ketab_n

بيانو اكتشفناه في الطبقة تحت الأرض من إحدى الحانات. حين ألقاها بعد قليل، سوف أطلب منها أن تصفّر لي نغمة «بوليرو» هوميل. ألمانيّ قام حتماً برحلة إلى إسبانيا. كان من الأفضل لي أن أنتظرها عند أسفل المبنى حيث كانت تعطي درسها. غريب ذلك الحيّ... حيّ ميتافيزيقيّ، كان بوفيار سيقول بصوته الرتيب البارد. كم أنّ نفْسي واهنة كي أستسلم هكذا لمزاجي المتقلّب... يكفي قليل من الضباب المنذر بالثلج عند زاوية جادّتي سيغور وسوفرين، حتّى أصاب بالإحباط. إنّني حقّاً شخص ضعيف. ربّما هي ذكرى الثلج الذي كان يتساقط في ما بعد الظهيرة تلك حين خرجت هيلين نافاشين من المبنى، فإنّني كلّما فكّرت في تلك الفترة من حياتي، أحسست برائحة الثلج– أو بالأحرى ببرودة منعشة تثلج لها الرئتان، إلى أن تتّحد في ذهني مع رائحة الأثير. ذات يوم، في ما بعد الظهيرة، انزلقَتْ بعد درس البيانو على بقعة من الجليد، فسقطَتْ وجُرِحت يدها. أخذ الجرح ينزف. وجدنا صيدليّة على مقربة، إلى أسفل الشارع. طلبْتُ قطناً، وبدل السبيرتو بتركيز 90٪، قارورة من الأثير. لا أظنّ أنّ ذلك كان

Twitter: @ketab_n

خطأ متعمّداً من جانبي. جلسنا على مقعد، نزعَتْ سدّادة القارورة، وحين راحت تبلّل قطعة القطن لوضعها على جرحها، شممت رائحة الأثير، رائحة قويّة جدّاً ألفْتُها منذ طفولتي. وضعْتُ القارورة الزرقاء في جيبي، لكنّ تلك الرائحة كانت لا تزال تفوح من حولنا. كانت تنتشر في غرف الفنادق في حيّ غارْ دو ليون حيث اعتدنا النزول. كان ذلك قبل أن تعود إلى منزلها، أو حين تأتي لملاقاتي فيها قرابة الساعة التاسعة مساءً. لم يكونوا يطلبون أوراق النزلاء عند مكتب الاستقبال في تلك الفنادق. فكانت تشهد حركة كثيفة بسبب قربها من المحطّة. نزلاء لا يمكثون طويلاً في الغرف، سيحملهم قطار بعد قليل. مجرّد ظلال. يمدّون لنا استمارة يترتّب علينا أن ندوّن عليها اسمينا وعنوانينا، من غير أن يتثبّتوا ممّا إذا كان الاسم والعنوان مطابقين لما هو مدوّن على جواز سفر أو بطاقة هويّة. كنت أتكفّل بملء الاستمارتين لكلينا. كم من الأسماء والعناوين المختلفة دوّنتُ... وكنت أنسخها مرّة بعد مرّة على صفحة مفكّرة حتّى أبدّل الأسماء في المرّة التالية. كنت حريصاً على محو أيّ أثر لنا وإخفاء تاريخَي

Twitter: @ketab_n

ولادتنا، لأنّنا كنّا لا نزال قاصرين. عثرت العام الماضي في محفظة قديمة على الصفحة التي نقلت عليها قائمة هويّاتنا الزائفة.

جورج أكاد، 28، شارع لا روشفوكو، باريس، الدائرة التاسعة.
إيفيت دينتياك، 75، شارع لوجييه
أندريه غابيسون، 17، حيّ خورخي خوان، مدريد
جان موريس جدلينسكي وماري جوزيه فاسّ، كاسا مونتالفو، بياريتز
جاك بيش برلين، شتيغليتس، 2 شارع أورليانشتراسه
باتريك دو تيروان، 21، شارع برليوز، نيس
سوزي كراي، 98، شارع فايزلسترات، أمستردام...

قيل لي إنّ كلّ فندق ينقل تلك الاستمارات إلى شرطة الأخلاق. هناك، يبوّبونها بالترتيب الأبجدي. يبدو أنّهم أتلفوها منذ ذلك الحين، لكنّني لا أعتقد ذلك. بقيت محفوظة بأمان في خزائنهم. ذات مساء، قام شرطيّ متقاعد، بدافع الفراغ والسأم، بمراجعة كلّ تلك المحفوظات القديمة، وعثر على بطاقة أندريه غابيسون أو ماري جوزيه فاس. تساءل لماذا بقي هؤلاء الأشخاص منذ أكثر من ثلاثين عاماً غائبين عن عناوينهم أو مجهولين

Twitter: @ketab_n

عليها. لن يعرف أبداً الحقيقة. قبل زمن بعيد، كانت فتاة تعطي دروس بيانو. لاحظْتُ في غرف الفنادق حيث كنّا نلتقي في حيّ غارْ دو ليون، أنّهم تركوا ستائر الدفاع المدنيّ السوداء معلّقة، رغم مضيّ سنوات مديدة على انتهاء الحرب. كنّا نسمع وقع خطى تذرع الأروقة ذهاباً وإياباً، صفْق أبواب، رنين هواتف. خلف الفواصل الخشبيّة، كانت أحاديث تتواصل طوال الليل، ونبرة الأصوات كانت تشير إلى مندوبين تجاريّين يناقشون أعمالهم بلا توقّف. خطوات متثاقلة في الأدراج، أشخاص يحملون حقائب. وبالرغم من الضوضاء، كنّا نتمكّن كلانا من بلوغ فسحة الصمت تلك التي كلّمتني عنها، حيث الهواء رقيق على الأنفاس. بعد وقت، كان يراودني إحساس بأنّه لم يعد هناك سوانا في الفندق، وأنّه فرغ من نزلائه. غادروا جميعهم ليستقلّوا القطار في المحطّة المقابلة. كان الصمت عميقاً إلى حدّ كنت أتصوّر محطّة قطارات صغيرة في بلدة ريفيّة، قرب حدود نائية يغمرها الثلج.

Twitter: @ketab_n

أذكر أنّه بعد الحادث، في عيادة ميرابو، كنت أستيقظ جفِلاً من غير أن أدري أين أنا. أتلمّس زرّ المصباح الصغير قرب السرير. عندها، في الضوء المباشر الفجّ، أتعرّف إلى الجدران البيضاء والواجهة الزجاجيّة. أحاول العودة إلى النوم، لكنّ نومي كان ثقيلاً ومضطرباً. كان هناك أشخاص يتكلّمون طوال الليل خلف الفاصل الخشبيّ. وكان اسم يعود باستمرار، تردّده أصوات بنبرات مختلفة: جاكلين بوسرجان. في الصباح، كنت أكتشف أنّني حلمت. وحده الاسم: جاكلين بوسرجان كان حقيقيّاً، إذ انّني سمعته منها هي نفسها في مستشفى أوتيل ديو، حين سألنا الرجل بالمريول الأبيض عن اسمينا.

في مساء آخر، في المحطّة الجنوبيّة من مطار أورلي، كنت

Twitter: @ketab_n

أنتظر أصدقاء عائدين من المغرب. كان هناك تأخير في الرحلة. كانت الساعة تخطّت العاشرة. والردهة الفسيحة المؤدّية إلى بوّابات الوافدين شبه مقفرة. راودني إحساس غريب بأنّني وصلت إلى مساحة أقرب إلى منطقة عازلة في الزمان والمكان. سمعت فجأة صوتاً من أصوات المطارات تلك غير المادّيّة يردّد ثلاث مرّات: «**السيّدة جاكلين بوسرجان مطلوبة عند بوّابة المسافرين رقم 624**». رحت أركض عابراً الردهة. لم أكن أدري ماذا حلّ بها منذ ثلاثين سنة، لكنّ تلك السنوات لم يعد لها أيّ وزن. ظننت واهماً أنّه ما زال من الممكن أن أجد بوّابة مسافرين لي. وجدت ركّاباً قلائل يتقدّمون عند البوّابة 624. أمامها يقف رجل ببدلة داكنة يقوم بالحراسة. سألني بصوت جافّ:

«هل معك تذكرتك؟

- إنّني أبحث عن شخص... بثّوا نداءً منذ قليل... جاكلين بوسرجان...»

كان آخر الركّاب قد تواروا. رفع كتفيه.

«لا بدّ أنّ هذه السيّدة صعدت إلى الطائرة منذ زمن طويل سيّدي».

Twitter: @ketab_n

قلت من جديد:

«هل أنت واثق؟ جاكلين بوسرجان...»

كان يقطع الطريق عليّ.

«بإمكانك أن ترى سيّدي أنّه لم يعد هناك أحد».

Twitter: @ketab_n

تختلط الأمور كلّها في ذاكرتي في ما يتعلّق بالفترة التي سبقت الحادث. كانت الأيّام تتعاقب في نور مبهم. كنت أنتظر أن تزداد قوّة التيّار الكهربائيّ حتّى أرى بمزيد من الوضوح. حين أستعيد اليوم ذكرى تلك الفترة، وحده ظلّ هيلين نافاشين يتراءى لي وسط الضباب. أذكر أنّه كان لها شامة على كتفها اليسرى. قالت لي إنّها ستغادر لبضعة أيّام إلى لندن، لأنّها تلقّت عرضاً لوظيفة، وتريد أن ترى إن كان الأمر يهمّها فعلاً.

رافقتها ذات مساء إلى قطارها في غارْ دو نوْر[1]. أرسلَت لي بطاقة بريديّة كتبت لي عليها أنّها سوف تعود قريباً إلى باريس. لكنّها لم تعد بعد ذلك. قبل ثلاث سنوات،

(1) محطّة الشّمال لسكك الحديد بباريس.

Twitter: @ketab_n

تلقّيت اتّصالاً هاتفيّاً. سمعت صوت امرأة تقول لي: «آلو... هنا فندق باليم... هناك من يودّ التحدّث إليك سيّدي...». كان فندق باليم يقع مقابل منزلها تقريباً، في الشارع الصغير الذي يمكن منه رؤية ساعة غارْ دو ليون. نزلنا مرّة في إحدى غرفه باسمَي إيفيت دينتيّاك وباتريك دو تيروان. ردّدت المرأة: «هل ما زلت على الخطّ سيّدي؟ سوف أحوّل لك المتّصِل...» كنت واثقاً من أنّها هي. سوف نلتقي من جديد بين درسي بيانو ويعزف التلاميذ «بوليرو» هوميل حتّى نهاية الأزمنة. الحياة عَوْد أبديّ، كما كان يحلو للدكتور بوفيار أن يردّد. كان الخطّ مشوّشاً، لكأنّني أسمع وشوشة الريح في الأغصان. انتظرْت وأنا أشدّ على السمّاعة خشية القيام بأدنى حركة يمكن أن تقطع هذا الخطّ الممدود عبر السنوات. «المتّصل يكلّمك سيّدي...» خيّل لي أنّني أسمع ضجيج قطعة أثاث قلبها أحد أو سقوط شخص على أدراج.

«آلو... آلو... هل تسمعني؟» كان صوت رجل. خاب أملي. وذلك الأزيز المستمرّ على الخطّ. «كنتُ صديقاً لوالدك... هل تسمعني؟» كنت أردّد له «نعم»،

Twitter: @ketab_n

لكنّه لم يكن هو يسمعني. «غي روسوت... اسمي غي روسوت... ربّما أخبرك والدك عنّي... كنت زميلاً لوالدك في مكتب أوتو... هل تسمعني؟» بدا وكأنّه يطرح عليّ هذا السؤال من باب الشكليّات، من غير أن يكترث حقّاً إن كنت أسمعه أم لا. «غي روسوت... كان لدينا مكتب مع والدك...» كان يوحي لي بأنّه يتّصل من إحدى حانات الشانزليزيه تلك من قبل خمسين عاماً، حيث كانت جلبة أحاديث تدور حول صفقات السوق السوداء، النساء والأحصنة. كان الصوت يغصّ أكثر فأكثر، فلا تردني سوى شذرات عبارات: «والدك... مكتب أوتو... لقاء... بضعة أيّام في فندق باليم.. أين يمكنني الاتصال به... قل له فقط: غي روسوت... مكتب أوتو... من قبل غي روسوت... اتّصالاً هاتفيّاً... هل تسمعني؟»

كيف حصل على رقم هاتفي؟ لم أكن مدرجاً في الدليل. تخيّلت ذلك الشبح يتّصل من إحدى غرف فندق باليم، ربّما الغرفة ذاتها التي نزل فيها في ما مضى أيفيت دينتياك وباتريك دو تيروان لليلة. يا للصدفة العجيبة... الصوت بات بعيداً جدّاً، والجمل متقطّعة غير مفهومة. تساءلت

Twitter: @ketab_n

أن كان يوّد فعلاً رؤية والدي، ظنّاً منه أنّه لا يزال على قيد الحياة، أم أنّه يودّ مقابلتي أنا. من جديد، ضجيج قطعة الأثاث المقلوبة أو سقوط جسد يتدحرج على أدراج. ثمّ طنين الهاتف، وكأنّه أغلق الخطّ. كانت الساعة الثامنة مساءً، ولم أجد الشجاعة لمعاودة الاتّصال بفندق باليم. شعرت بخيبة أمل كبيرة. كنت أترقّب صوت هيلين نافاشين. ما الذي حلّ بها منذ ذلك الزمن البعيد؟ آخر مرّة رأيتها في منامي، انقطع الحلم من غير أن يتسنّى لها إعطائي عنوانها ورقم هاتفها.

*

في الشتاء ذاته الذي سمعت فيه صوت غي روسوت البعيد، حصلت لي حادثة مؤسفة. بِوسعنا الكدّ والجهد على مدى أكثر من ثلاثين عاماً لنجعل حياتنا أكثر وضوحاً وتناغماً ممّا كانت عليه في بداياتها، يكفي حادث واحد ليعيدنا فجأة إلى الخلف. كان ذلك في شهر كانون الأوّل. كنت لاحظت منذ حوالى أسبوع، كلّما أخرج من منزلي أو أعود إليه، امرأة واقفة بلا حراك على مسافة بضعة أمتار من بوّابة المبنى أو على الرصيف المقابل. لم تكن تحضر البتّة

Twitter: @ketab_n

قبل الساعة السادسة مساء. امرأة طويلة القامة، ترتدي معطفاً من جلد الغنم، تضع قبّعة عريضة الأطراف وتحمل حقيبة بنّيّة معلّقة في عرض صدرها. كانت تتبعني بنظرها وهي مسمّرة في مكانها، صامتة، في وقفة متوعّدة. ترى من أيّ كابوس منسيّ من كوابيس طفولتي خرجت تلك المرأة؟ ولماذا في هذا الوقت بالذات؟ أطللت من النافذة. كانت تنتظر على الرصيف، وكأنّها تراقب واجهة المبنى. لكنّني لم أشعل الضوء في الغرفة، وكان من المستحيل عليها أن تراني. بدت بتلك الحقيبة الضخمة المتدلّية من كتفها وتلك القبّعة والجزمتين، وكأنّها مديرة مقْصف لجيش اختفى منذ زمن بعيد، لكنّه ترك خلفه جثثاً كثيرة. كنت أخشى أن تبقى من ذلك الحين فصاعداً وحتّى نهاية حياتي، واقفة مترصّدة منزلي أينما كان، من غير أن يجديني نفعاً الانتقال إلى مسكن آخر. في كلّ مرّة، سوف تعثر على عنواني الجديد.

ذات ليلة، كنت عائداً أبكرَ من المعتاد، ووجدتها لا تزال هناك، مسمّرة من دون حراك. كنت على وشك أن أدفع بوّابة المبنى حين اقتربَتْ منّي ببطء. امرأة مسنّة.

Twitter: @ketab_n

كانت تحدّق بي بعينين صارمتين وكأنّها تريد أن تبعث فيّ شعوراً بالخزي من أمر ما، أو أن تذكّرني بخطأ ارتكبته. قاومْتُ تلك النظرة بصمت. بدأْتُ أتساءل في نهاية المطاف أيّ ذنب قد أكون اقترفته. كتفْتُ ذراعيّ وقلت لها بصوت هادئ، متوخّياً النطق بوضوح، أنّني أودّ أن أعرف ما تريده منّي.

رفعَتْ ذقنها وخرج من فمها سيل من الشتائم. كانت تناديني باسمي وتخاطبني وكأنّها تعرفني جيّداً. هل كانت صلة قربى تجمعنا؟ ربّما عرفتها منذ زمن بعيد. كانت القبّعة العريضة الأطراف تزيد من قسوة وجهها تحت نور المصباح الأصفر، كانت تشبه فنّانة ألمانيّة هرمة، فنّانة رديئة متكلّفة تدعى ليني ريفنشتال[1]. الحياة والمشاعر لم تترك بصماتها على وجه المومياء ذاك، أجل، مومياء فتاة صغيرة بغيضة ونزقة من قبل ثمانين عاماً. كانت عينا الطير الجارح لا تزالان محملقتين بي، ولم أخفض نظري. كنت أبتسم لها ابتسامة عريضة. شعرْتُ أنّها على وشك أن تعضّني وتبثّ

(1) فنانة ألمانيّة من مواليد 1902 في برلين، كانت ممثّلة وراقصة ومخرجة ومصوّرة، نبذتها أوساط السينما بعد العام 1945 لارتباطها بالدعاية النازيّة. توفّيت عام 2003.

Twitter: @ketab_n

فيّ سمّها، لكن خلف تلك الشراسة، كان هناك شيء زائف، مثل أداء ممثّلة عديمة الموهبة والرهافة. انهالت عليّ بالشتائم من جديد. اتّكأَتْ إلى بوّابة المبنى لتقطع عليّ الطريق. كنت لا أزال أبتسم لها، ورأيت جيّداً أنّ ذلك كان يغيظها أكثر وأكثر. لكنّني لم أكن خائفاً منها. ولّى زمن أهوال الطفولة، في العتمة، من فكرة أنّ ساحرة سوف تفتح باب الغرفة، أو ربّما الموت. «هل يمكنك خفض صوتك قليلاً سيّدتي؟» قلت لها بنبرة لبقة أدهشتني أنا نفسي. بدت هي أيضاً مصدومة لهدوء صوتي. «عذراً، لكنّني لم أعد معتاداً سماع أصوات عالية مثل صوتك». رأيت ملامحها تتشنّج وعينيها تتّسعان في لمحة بصر. مدّت ذقنها إلى الأمام متحدّيةً، ذقن غليظ بارز.

كنت أبتسم لها. عندها، انقضّت عليّ. أطبقَتْ بإحدى يديها على كتفي، وحاولت خدشي بالأخرى في وجهي. أردت التفلّت منها، لكنّها كانت ثقيلة الوزن للغاية. أحسست بأهوال طفولتي تعاودني شيئاً فشيئاً. مضى أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أعمل على ترتيب حياتي مثل حديقة على الطراز الفرنسيّ. فرشَت الحديقة ممرّاتها العريضة،

Twitter: @ketab_n

مساحاتها المكسوّة بالعشب وأجماتها، مغطّيةً مستنقعاً كاد يبتلعني في ما مضى. ثلاثون عاماً من الجهود. وكلّ ذلك من أجل أن تترصّدني ميدوزا في إحدى الليالي في الشارع وتنقضّ عليّ... تلك العجوز ستخنقني. وزنها بثقل ذكريات طفولتي. كان كفن يكسوني ولم يعد يجديني نفعاً أن أتخبّط. لم يكن بوسع أيّ كائن مساعدتي. كان هناك مركز للشرطة على مسافة قليلة إلى أسفل الشارع، على الساحة، يقف أمامه عناصر من حرس السلام في مناوبة. كلّ ذلك سينتهي في حافلة لنقل الموقوفين وفي مركز شرطة. ذلك هو قدر محتوم منذ زمن. على كلّ حال، في سنّ السابعة عشرة، حين اقتادتني الشرطة لأنّ والدي أراد التخلّص منّي، جرى ذلك بالقرب من هنا، من ناحية الكنيسة. أكثر من ثلاثين عاماً من الجهود غير المجدية، لأعود إلى نقطة الانطلاق، في مخافر الحيّ. يا للقدر الحزين... كانا أشبه بسكّيرين يتقاتلان في الشارع، سوف يقول أحد عناصر حرس السلام. سوف يجعلوننا أنا وتلك العجوز نجلس على مقعد، على غرار كلّ الذين سيكونون قبضوا عليهم في حملات التوقيفات الليليّة، وسيترتّب عليّ الإفصاح عن

Twitter: @ketab_n

اسمي. سيسألونني إن كنت أعرفها. سيقول لي مفوّض الشرطة: إنّها تدّعي أنّها أمّك، لكن، بحسب أوراقها، ليس هناك أي صلة قرابة بينكما. في مطلق الأحوال، أنت ولدت لأمّ مجهولة. أنت حرّ طليق سيّدي. كان ذلك مفوّض الشرطة ذاته الذي سلّمني والدي إليه حين كنت في السابعة عشرة. كان الدكتور بوفيار على حقّ: الحياة عَوْد أبديّ. اجتاحني حنق بارد، وسدّدت للعجوز ضربة حادّة بركبتي في معدتها. تلاشت قبضتها. دفعتها بعنف. عدت أتنفّس أخيراً... تغلّبْتُ عليها مباغتة، لم تعد تجرؤ على الاقتراب منّي، بقيت مسمّرة عند حافة الرصيف، محدّقة بي بعينيها الدقيقتين المتّسعتين. باتت هي في موقع دفاعيّ. حاولَتْ أن تبتسم لي، ابتسامة مروّعة جديرة بممثّلة سيئة، تكذّبها قسوة النظرة. كتفتُ ذراعيّ. عندها، حين رأت أنّ الابتسامة لم يكن لها أيّ تأثير، تظاهرتْ بمسح دمعة. كيف أمكنني في سنّي أن أستسلم للهلع أمام هذا الشبح، وأصدّق للحظة أنّها ما زالت قادرة على شدّي إلى القاع؟ زمن مخافر الشرطة ولّى بلا رجعة.

لم تعد في الأيّام التالية تقف مترقّبة أمام المبنى، ولم

Twitter: @ketab_n

تبدر عنها حتّى اليوم أيّ إشارة تفيد بأنّها لا تزال على قيد الحياة. في تلك الليلة، واصلْتُ مراقبتها من خلف النافذة. لم يبدُ أنّ عراكنا ترك أيّ أثر عليها. راحت تذرع الفسحة الممتدّة أمام المبنى على طولها، ذهاباً وإياباً على مسافة قصيرة ولكن بمشية نشطة، شبه عسكريّة. منتصبة كالرمح، رافعة ذقنها إلى الأعلى. بين الحين والآخر، كانت تدير رأسها صوب واجهة المبنى لتتثبّت ممّا إذا كان هناك جمهور لها. ثمّ أخذت تعرج. كانت تتدرّب على العرج في بادئ الأمر، كما في تمرين. وجدت تدريجيّاً الوتيرة التي تناسبها. رأيتها تبتعد وتتوارى وهي تعرج، لكنّها كانت تبالغ أكثر ممّا ينبغي في دورها ذاك، دور مسؤولة المقصف العجوز التي تبحث عن جيش مندحر.

Twitter: @ketab_n

قبل ثلاث سنوات، في الفترة ذاتها تقريباً التي هاجمتني فيها تلك العجوز، قرابة شهر حزيران أو تمّوز، كنت أمشي بمحاذاة رصيف لا تورنيل. كان ذلك في ما بعد ظهيرة يوم سبت مشمس. كنت أتأمّل الكتب في خزائن باعة الكتب القديمة. لمحت فجأة ثلاثة مؤلّفات موثقة برباط مطّاطيّ أحمر غليظ ومعروضة بشكل بارز. شعرت بغصّة في قلبي لرؤية غلاف المجلّد الأوّل الأصفر وعليه اسم الكاتب والعنوان بحروف سوداء: «الذكريات الحاجبة» لفريد بوفيار. نزعت الرباط المطّاط. كتابان آخران لبوفيار: «العقاقير والعلاجات» و«الكذب والاعتراف». كان ذكر تلك الكتب مراراً خلال الاجتماعات في دانفير روشرو. ثلاثة كتب نافدة كان يقول عنها بشيء من السخرية أنّها

Twitter: @ketab_n

«أعمال شبابه». كان تاريخ صدورها مدرجاً عند أسفل غلافها مع اسم الناشر: أو سابلييه. أجل، لا بدّ أنّ بوفيار كان في ريعان شبابه في ذلك الوقت، بالكاد اثنين وعشرين عاماً، أو ثلاثة وعشرين عاماً.

اشتريت الكتب الثلاثة واكتشفت على الصفحة الأولى من «الكذب والاعتراف» إهداء: «إلى جنفياف دالام، هذا الكتاب الذي ألّفته حين كنت في سنّها، في زمن حظر التجوّل. فريد بوفيار». لم يكن الكتابان الآخران يتضمّنان أيّ إهداء، غير أنّهما كانا يحملان كالأوّل على صفحة العنوان اسم «جنفياف دالام» مكتوباً بالحبر الأزرق، مرفقاً بعنوانٍ: «4، جادّة جوردان». وجه تلك الفتاة الشقراء ذات البشرة الشاحبة التي كانت تبقى دائماً في ظلّ بوفيار وتجلس بجانبه على مقعد السيّارة عند انتهاء الاجتماعات، والفتى ذو وجه الباشق يقول لي بصوت منخفض: «اسمها جنفياف دالام»، كلّ ذلك طفا إلى ذاكرتي. سألت بائع الكتب القديمة أين عثر على تلك الكتب. هزّ كتفيه – آه، لدى انتقال أحدهم إلى منزل جديد... إذ تذكّرت كيف كانت جنفياف دالام تتأمّل

Twitter: @ketab_n

بوفيار بعينيها الزرقاوين وتجترع كلامه، قلت لنفسي إنّ من المستحيل أن تكون تخلّصت من تلك الكتب الثلاثة. إلّا إذا ما أرادت القطيعة نهائيّاً مع جزء كامل من حياتها. أو أن تكون توفّيت. 4، جادّة جوردان. كان ذلك على مقربة من مسكني، حين كنت أنزل في غرفة الفندق في شارع فوا فيرت. لكنّني لم أكن بحاجة للتثبّت من ذلك، كنت أعرف أنّ المبنى لم يعد قائماً منذ حوالى خمسة عشر عاماً وأنّ شارع فوا فيرت تغيّر اسمه.

تذكّرت أنّني في أحد أيّام تلك الفترة، كنت أنتظر الباص 21 عند بوّابة جنتيّي، حين خرجَتْ من المبنى الصغير، لكنّني لم أجرؤ على مبادرتها بالكلام. كانت هي أيضاً تنتظر الباص، وكنّا وحيدين في المحطّة. لم تتعرّف إليّ، وكان ذلك طبيعيّاً: فهي لم تكن ترى سوى بوفيار خلال الاجتماعات، وأفراد المجموعة الآخرون كانوا مجرّد وجوه مبهمة في الهالة المضيئة التي كان يبعثها من حوله.

حين انطلق الباص، كنّا الراكبين الوحيدين فيه. جلست على المقعد المقابل لمقعدها. كنت أذكر جيّداً الاسم الذي همسه لي الباشق قبل ذلك ببضعة أيّام. جنفياف دالام.

Twitter: @ketab_n

كانت مستغرقة في قراءة كتاب مغلّف بورق مصقول شبه شفّاف، ربّما كان الكتاب الذي أهداها إيّاه بوفيار والذي ألّفه في زمن حظر التجوّل. كنت شاخصاً إليها دون أن أحوّل نظري عنها. لست أذكر أين قرأت أنّه إذا ما حدّقنا مليّاً بشخص ما، حتّى من خلف ظهره، فسوف يتنبّه إلى وجودنا. لكنّ الأمر استمرّ طويلاً معها. لم تتنبّه لي بشكل غامض إلّا حين كان الباص يسلك شارع غلاسيير. «رأيتكِ في اجتماعات الدكتور بوفيار»، قلت لها. ظننت أنّني بالتلفّظ بذلك الاسم، سوف أنال استحسانها، لكنّها رمقتني بنظرة مرتابة. رحت أبحث عمّا يمكن أن أقوله لأرضيها. «غير معقول... قلت لها، الدكتور بوفيار لديه جواب على كلّ الأسئلة التي نطرحها في الحياة». اتّخذْتُ تعبيراً ينمّ عن إطراق، وكأنّه يكفي التلفّظ باسم بوفيار للترفّع عن الشؤون اليوميّة وعن ذلك الباص الذي كنّا جالسين فيه. بدت مطمئنّة. كان لدينا المرشد الروحيّ ذاته، كنّا نتقاسم الشعائر ذاتها والأسرار ذاتها. «هل تحضر الاجتماعات منذ زمن بعيد؟ سألتني. - منذ بضعة أسابيع. - وهل تودّ إقامة اتّصال شخصيّ أكثر

Twitter: @ketab_n

معه؟» طرحت عليّ السؤال ببعض الاستعلاء، وكأنّها الوسيط الوحيد القائم بين بوفيار وجموع أتباعه. «ليس في الوقت الحاضر، أجبت، أفضّل التريّث قليلاً بعد...» كانت نبرة صوتي رصينة إلى حدّ لم يعد بوسعها التشكيك في صدقي. ابتسمت لي، وبدا لي حتّى أنّ ظلال عطف تراءت في عينيها الشاسعتين بزرقتهما الشاحبة. لكنّني لم أبنِ على ذلك أوهاماً، فالفضل فيه إنّما يعود إلى بوفيار.

كانت تضع ساعة رجاليّة تتباين ونحافةَ معصمها. لم يكن السوار الجلديّ الأسود مشدوداً كثيراً. قامت بحركة أكثر حيويّة ممّا ينبغي وهيّ تدسّ الكتاب في حقيبتها. انزلقت الساعة وسقطت أرضاً. انحنيت للمّها. لا بدّ أنّها ساعة قديمة لبوفيار، قلت لنفسي. طلبَتْ منه أن تضعها حتّى تحمل على الدوام غرضاً كان يمتلكه. أردت أن أساعدها على شدّ السوار الجلديّ على معصمها، لكنّ السوار كان حقّا واسعاً جدّاً عليها. عندها، لاحظْتُ على أسفل معصمها، على مستوى العروق، ندبة حديثة إذ كانت لا تزال متورّدة، سلسلة من البثرات الصغيرة. شعرت في بادئ الأمر بالانزعاج. لم يكن الجرح يتناسب

Twitter: @ketab_n

مع ذلك النهار الشتائيّ المشمس، حيث كنت جالساً في باص برفقة فتاة شقراء ذات عينين زرقاوين. كنت من جهتي شخصاً عاديّاً للغاية، يتوق إلى السعادة ويهوى الحدائق على الطراز الفرنسيّ. غالباً ما كانت أفكار سوداء تعبر ذهني، لكن رغم إرادتي. ربّما كان الأمر مماثلاً بالنسبة لها أيضاً. كانت ابتسامتها ونظرتها تعكسان اللامبالاة قبل أن تعرف الدكتور بوفيار. لا شكّ أنّه هو من انتزع منها بهجة الحياة. أدركَتْ أنّني لاحظت الندبة، وراحت تضغط راحة يدها على ركبتها حتّى تخفيها. هل كانت لا تزال طالبة أم انّها وجدت وظيفة؟ شرحَتْ لي أنّها موظّفة تدقّ على الآلة الكاتبة في شركة تدعى «أوبرا إنتيريم». وها هي فجأة تتكلّم على سجيّتها، من غير أن يبقى أثر لذلك التركيز وذلك التكلّف اللذين أبدتهما حين جئنا على ذكر الدكتور بوفيار. أجل، بدأْتُ أقتنع في نهاية الأمر أنّها قبل أن تصادفه في طريقها، كانت فتاة في غاية البساطة. وأسفْتُ لعدم ملاقاتها في ذلك الحين.

سألتها إن كانت تحضر الاجتماعات منذ وقت طويل. سنة تقريباً. كان الأمر صعباً في البداية، لم تكن تفهم

Twitter: @ketab_n

الكثير. لم يكن لديها أيّ إلمام بالفلسفة. أوقفَت دراستها بعد شهادة المرحلة الابتدائيّة. كانت تعتقد أنّها دون المستوى، وهذا الإحساس ألقى بها في «أزمة يأس». ربّما أرادت باختيارها هاتين الكلمتين أن تشرح لي سبب الندبة على معصمها. بعد ذلك، ساعدها الدكتور على التغلّب على هذا القصور في الثقة بالنفس. كان ذلك شاقّاً جدّاً، لكنّها نجحت بفضله في تخطّي الأمر. كانت ممتنّة له فعلاً لأنّه دفعها إلى بلوغ مستوىً ما كانت لتصل إليه يوماً بمفردها. أين التقت به؟ آه، في مقهى. كانت تتناول فيه شطيرة قبل العودة إلى عملها في المكتب. كان يعدّ لأحد الصفوف التي كان يعطيها في «الدراسات العليا». حين علم أنّها تضرب على الآلة الكاتبة، طلب منها أن تطبع له نصّاً. كنت على وشك أن أقول لها إنّني أنا أيضاً التقيت ببوفيار أوّل مرّة في مقهى. لكنّني كنت أخشى إثارة موضوع أليم. ربّما كانت تعرف بوجود المرأة ذات المعطف الواقي من المطر المبطّن بالفرو، تلك التي كانت تقول: «في المرّة المقبلة، عليك أن تتذكّر عبواتي». ماذا لو كانت تلك المرأة هي سبب الندبة على معصمها؟ أو ربّما بوفيار، بكلّ

Twitter: @ketab_n

بساطة، بحياته العاطفيّة التي كانت تبدو لي للوهلة الأولى في غاية الغرابة...

سألتها عن المحطّة التي تنزل عندها. بوتي شان-دانيال كازانوفا. كنت اشتريت بطاقة إلى محطّة لوكسمبورغ، لكنّ الأمر لم يكن له أيّ أهمّيّة إطلاقاً. قرّرت أن أرافقها حتّى النهاية. كانت ذاهبة إلى شركة «أوبرا إنتيريم»، لكنّها قالت لي إنّها ستترك هذه الوظيفة قريباً. وعدها الدكتور بوظيفة «بدوام كامل». سوف تطبع دروسه ومقالاته وتهتمّ بتنظيم الاجتماعات وبالدعوات والبيانات التي ينبغي إرسالها إلى مختلف المجموعات. كانت سعيدة بحصولها على عمل حقيقيّ يضفي أخيراً مغزى على حياتها.

«إذاً، سوف تكرّسين نفسك كليّاً للدكتور؟» سبق لساني تفكيري، وما إن تلفّظت بهذه الجملة حتّى ندمتُ على ذلك. حدّقت بي بنظرتها الزرقاء الشاحبة، بشيء من القسوة. أردت تدارك هفوتي بملاحظة عموميّة: «تعرفين، المعلّم لا يقدّر على الدوام مدى سطوته على أتباعه». لانت نظرتها. بدا لي أنّها لم تعد تراني، أنّها تائهة في أفكارها. سألتني: «هل تعتقد ذلك؟» كان في سؤالها حيرة وسذاجة

Twitter: @ketab_n

وجدتهما مؤثّرتين. عمل حقيقيّ يضفي أخيراً مغزى على حياتها... تلك الحياة التي أرادت بأيّة حالٍ وضع حدّ لها، بحسب ما أستنتج من تلك الندبة عند أسفل معصمها... كان بودّي لو تبوح لي بما يخالجها. حلمت للحظة عابرة بأنّها تدني وجهها من وجهي في ذلك الباص، وتكلّمني طويلاً في أذني حتّى لا يسمع أحدٌ سواي.

راحت تنظر إليّ من جديد مرتابة. «لا أوافقك الرأي، قالت بجفاء. أنا بحاجة إلى معلّم...» هززت رأسي. لم يكن لديّ جواب. كنّا وصلنا إلى محطّة باليه روايال، وكان الباص يعبر أمام مقهى «روك أونيفير» الذي جلست في كثير من الأحيان مع والدي على شرفته. هو أيضاً لم يكن يتكلّم وكنّا نفترق من غير أن نكسر الصمت. الزحمة شديدة. كان الباص يتقدّم بشكل متقطّع. كان يجدر بي اغتنام الفرصة لأسارع إلى طرح أسئلة عليها ومعرفة المزيد عن المدعوّة جنفياف دالام، لكنّها بدت مستغرقة في مسألة أخرى كانت تشغل بالها. لم نتبادل أدنى كلمة حتّى بلغنا محطّة بوتي شان-دانيال كازانوفا. ثمّ نزلنا من الباص. صافحتني ساهمة على الرصيف، مادّة لي يدها

Twitter: @ketab_n

اليسرى، تلك التي تحمل الساعة والندبة. «إلى الاجتماع المقبل»، قلت لها. لكنها خلال الاجتماعات اللاحقة، تجاهلت على الدوام حضوري. ابتعدت مرتقيةً جادّة الأوبرا وغابت بسرعة عن أنظاري. كان الرصيف يغصّ في تلك الساعة بأعداد غفيرة من المارّة.

Twitter: @ketab_n

حلمت هذه الليلة بإحدى اللحظات الأكثر كآبة في حياتي. حين كنت في سنّ السابعة عشرة، اتّصل والدي في ما بعد ظهيرة أحد الأيّام بشرطة النجدة للتخلّص منّي، وكانت حافلة الموقوفين في انتظارنا أمام المبنى. سلّمني إلى مخفر الحيّ، معلناً أنّني «أزعر». فضّلت نسيان تلك الحادثة، لكن في الحلم الذي راودني هذه الليلة، عاودني تفصيل كان ممحوّاً هو أيضاً مع كلّ ما تبقّى، فهزّني بعد مضيّ أربعين عاماً مثل قنبلة موقوتة. أرى نفسي جالساً على مقعد صغير في قعر مخفر الشرطة، أنتظر من غير أن أعرف ما سيحلّ بي. بين الحين والآخر، أغفو قليلاً. كان مفتّشون يدفعون مجموعة غير متجانسة من الأشخاص داخل الصالة، بعضهم يرتدي ملابس أنيقة، والبعض

Twitter: @ketab_n

الآخر أشبه بمشرّدين. إنّها حملة اعتقالات. يفصحون عن هويّاتهم. ويتوارون الواحد تلو الآخر في قاعة لا أرى منها سوى بابها المشرّع. آخر من تقدّم أمام الرجل الذي كان يضرب على الآلة الكاتبة كان امرأة شابّة، شعرها كستنائيّ، ترتدي معطفاً من الفرو. أخطأ الشرطيّ عدّة مرّات في كتابة اسمها، فردّدته بملل: جاكلين بوسرجان.

التقت نظراتنا قبل أن تدخل إلى القاعة المجاورة.

Twitter: @ketab_n

أتساءل إن لم أكن رافقت للتوّ هيلين نافاشين إلى قطارها في غارْ دو نوْر ليلةَ صدمتني السيّارة. يلتهم النسيان في نهاية الأمر أجزاء كاملة من حياتنا ويقضم أحياناً فواصل انتقاليّة صغيرة. وفي ذلك الفيلم القديم، يؤدّي تعفّن الشريط إلى إسقاط مراحل كاملة من الزمن، ويعطينا الانطباع بأنّ حادثتين وقعتا بفارق أشهر حصلتا في اليوم ذاته، لا بل كانتا متزامنتين. كيف يمكن إقامة أدنى تسلسل زمنيّ حين نرى هذه الصور المبتورة تعبر الواحدة تلو الأخرى، متداخلة وسط البلبلة العارمة المسيطرة على ذاكرتنا، أو تتعاقب بطيئة أحياناً، ومتقطّعة أحياناً أخرى، وسط ثقوب سوداء؟ في نهاية الأمر، أشعر بالدوار.

يبدو لي على الأرجح أنّني كنت عائداً مشياً في تلك

Twitter: @ketab_n

الليلة من غارْ دو نور. وإلّا فكيف أفسّر أنّني وجدت نفسي في مثل ذلك الوقت المتأخّر من الليل جالساً على مقعد على مقربة من ساحة برج سان جاك، أمام محطّة الباصات الليليّة؟ كان رجل وامرأة ينتظران أيضاً في المحطّة. بادرني الرجل بالكلام بنبرة عدائيّة. كان يريد أن أرافقهما هو والمرأة إلى فندق. لم تقل المرأة شيئاً وبدت محرجة. أمسك هو بذراعي محاولاً جرّي. راح يدفعني صوبها. «إنّها جميلة، أليس كذلك...؟ وأنت لم ترَ كلّ شيء بعد...» حاولْتُ الإفلات منه، لكنّه كان دبقاً ملحاحاً. وفي كلّ مرّة، كان يطبق على ذراعي من جديد. كانت المرأة تبتسم ابتسامة متهكّمة. لا بدّ أنّه كان ثملاً، وكان يقرّب وجهه من وجهي ليكلّمني. لم تكن رائحة كحول تفوح منه، بل عطر غريب، عطر «أكوا دي سيلفا». دفعته بعنف بقفا ذراعي. حملق بي بذهول، والخيبة على وجهه.

سلكت شارع كوتيلري، شارع فرعيّ صغير ومقفر، قبل قصر بلديّة باريس مباشرة. عدت مراراً خلال السنوات التالية، وحتّى اليوم بالذات، إلى ذلك الشارع لأحاول أن أفهم الشعور بالضيق الذي أثاره في نفسي

Twitter: @ketab_n

في المرّة الأولى. ما زال يراودني الشعور ذاته بالضيق. أو بالأحرى الإحساس بالانزلاق إلى عالم مُوازٍ، خارج عن الزمن. يكفي أن أسير بمحاذاة هذا الشارع حتّى أُدرك أنّ الماضي ولّى بلا رجعة، من غير أن أعرف بوضوح في أيّ حاضر أحيا. إنّه مجرّد معبر تسلكه السيّارات مسرعةً في الليل. شارع منسيّ لم يعره أحد انتباهاً في أيّ يوم. في تلك الليلة، لاحظت ضوءاً أحمر على الرصيف إلى يسار الشارع. مكان اسمه «لي كالانْك». دخلتُ. كان النور ينسكب من فانوس متدلّ من السقف. كان أربعة أشخاص يلعبون الورق حول إحدى الطاولات. نهض رجل أسمر ذو شاربين وتوجّه صوبي. «هل تودّ تناول العشاء سيّدي؟ في الطابق الأوّل من فضلك». تبعته على الأدراج. هناك أيضاً، كانت طاولة واحدة محجوزة، قرب الواجهة الزجاجيّة، وحولها أربعة أشخاص، امرأتان ورجلان. أشار لي إلى الطاولة الأولى إلى اليسار، عند نهاية الأدراج. لم يعرني الآخرون أيّ اهتمام. كانوا يتكلّمون بأصوات خفيضة، همهمة تتخلّلها ضحكات. كان هناك علب هدايا مفتوحة على الطاولة، وكأنّهم يحتفلون بعيد

Twitter: @ketab_n

ميلاد، أو يقيمون سهرة. كانت قائمة الطعام موضوعة على غطاء الطاولة الأحمر. قرأت عليها: «ووترزوي بالسمك[1]». أسماء الأطباق الأخرى كانت مكتوبة بخطّ صغير للغاية لم يسعني قراءته تحت النور الحادّ الذي يكاد يكون أبيض. كانوا يقهقهون بالقرب منّي.

«ووترزوي بالسمك». تساءلت من يمكن أن يكونوا، روّاد هذا المطعم. أعضاء أخويّة يتناقلون العنوان همساً، أو لعلّهم، بما أنّ الزمن معلّق في هذا الشارع، أشخاص تائهون حول طاولة إلى الأبد؟ لم أعد أذكر جيّداً لماذا انتهى بي الأمر هناك. لا شكّ أنّ رحيل هيلين نافاشين هو الذي أثار فيّ هذا الإحساس بالكرب. ثمّ أنّنا كنّا في مساء يوم أحد، ومساءات أيّام الأحد تترك ذكريات عجيبة، مثل فسحات عَدَم صغيرة في حياتنا. كان يتحتّم العودة إلى الكليّة أو إلى الثّكنة. كنت أنتظر على رصيف محطّة لم أعد أذكر اسمها. وبعد قليل، كنت نائماً نوماً مضطرباً في الأضواء الخافتة الزرقاء في مهجع. وها أنا في حانة «لي كالانك»، جالساً إلى مائدة مغطّاة بمفرش أحمر، وقائمة

(1) طبق يخنة بالسمك، وهو اختصاص فلمندي.

Twitter: @ketab_n

الطعام تعرض عليّ طبق «ووترزوي بالسمك». هناك، كانوا مسترسلين في الضحك. أحد الرجلين اعتمر قلنسوة من فرو الأستراخان الأسود. نظّاراته ووجهه النحيل الفرنسي القسمات في تباين مع قبّعة الخيّال الروسيّ أو البولنديّ تلك. شابْكا. أجل ذلك كان اسمها، شابكا. وكان ينحني ليقبّل جارته الشقراء في تجويف كتفها، لكنّها لم تكن تدعه يفعل. وكان الآخرون يضحكون. كان من المستحيل عليّ أن أشاطرهم الضحك، حتّى لو وددت ذلك بكلّ طيبة خاطر. أعتقد أنّني لو اقتربت من طاولتهم، لما كانوا رأوني، ولو كلّمتهم، لما كانوا حتّى سمعوا نبرة صوتي. كنت أحاول التشبّث بتفاصيل ملموسة. «لي كالانْك»، الرقم 4، شارع لا كوتيلري. ربّما كان إحساس الضيق ناجماً عن الموقع الطبوغرافيّ لذلك الشارع. كان يؤدّي إلى المباني الضخمة لمقرّ الشرطة، على ضفّة السين. لم يكن هناك أدنى ضوء خلف نوافذ تلك المباني. بقيْتُ جالساً إلى الطاولة، لأرجئ اللحظة التي سأجد نفسي فيها وحيداً في ذلك الحيّ. حتّى فكرة الأضواء في ساحة شاتليه لم تكن تطمئنني. ولا من بعدها

Twitter: @ketab_n

ساحة سان جرمان لوكسيروا التي سيترتّب عليّ عبور أرصفة النهر المقفرة للوصول إليها. خلع الرجل الشابكا عن رأسه وراح يمسح العرق عن جبينه. لم يحضر أيّ نادل لأخذ طلبي. طبق «ووترزوي بالسمك» في مطعم اسمه لي كالانك... في ذلك المزيج ما يبعث القلق. كانت ثقتي تتراجع في قدرتي على تخطّي غمّ مساءات يوم الأحد.

*

في الخارج، تساءلْتُ إن لم يكن يجدر بي انتظار الباص الليليّ من جديد. لكنّني شعرت بالذعر لفكرة العودة وحيداً إلى غرفة الفندق. بدا لي حيّ بوّابة أورليان فجأةً موحشاً، ربّما لأنّه كان يذكّرني بماضٍ قريبٍ: ظِلّ والدي يبتعد نحو مونروج، كأنّما صوب فرقة إعدام، وكلّ لقاءاتنا الخائبة في مقاهي تلك الأحياء الخلفيّة، مقاهي «زايير» و«لا روتوند» و«ترمينوس» وما شابه... كنت بأمسّ الحاجة في مثل ذلك الوقت إلى رفقة هيلين نافاشين. كنت سأطمئنّ معها للعودة إلى غرفتي، وكنّا حتّى سنقطع المسافة مشياً عبر شوارع مساء الأحد الميتة. كانت قهقاتنا قبل قليل في مطعم «لي كالانك» ستطغى على ضحكات

Twitter: @ketab_n

الرجل بالشابكا والآخرين حول طاولته.

قلت لنفسي سعياً لاستجماع شجاعتي، إنّ الأمور ليست كلّها مغمّة إلى هذا الحدّ في حيّ بوّابة أورليان. ففي أيّام الصيف، يكون الأسد البرونزيّ الضخم جالساً هناك تحت أغصان الأشجار، وكلّما نظرت إليه من بعيدٍ بعيد، كان وجوده في الأفق يطمئنني. كان يسهر على الماضي، إنّما كذلك على المستقبل. في تلك الليلة، سيكون الأسد المرجع الذي أهتدي به. كنت أضع ثقتي بذلك الحارس.

حثثت خطاي وصولاً إلى سان جرمان لوكسيروا. حين بلغت قناطر شارع ريفولي، عندها شعرت وكأنّ أحداً ما أيقظني فجأة. «لي كالانك»... الرجل بالشابكا الذي كان يحاول تقبيل الشقراء... عابراً على طول القناطر، خيّل لي أنّني أعود إلى الهواء الطلق. إلى اليسار، قصر اللّوفر، ثمّ بعد قليلٍ حديقة التويلري، حديقة طفولتي. ومع تقدّمي نحو ساحة الكونكورد، سأحاول أن أحزر ماذا هناك خلف سياج الحديقة، في العتمة: حوض المياه الأوّل، المسرح في الهواء الطلق، دوّامة الخيول الخشبيّة، حوض المياه الثاني... خطوات قليلة بعد، وسيكون بوسعي استنشاق هواء

Twitter: @ketab_n

المساحات الخلاء. ثمّ في خطّ مستقيم. والأسد في نهاية الشارع، جالساً مثل حارس في وسط تقاطع الطرق... في تلك الليلة، كانت المدينة أكثر غموضاً من العادة. بدايةً، لم يسبق لي أن عرفت صمتاً بهذا العمق من حولي. لا سيّارة واحدة. بعد قليل، سأعبر ساحة الكونكورد من غير أن أكترث للأضواء الحمراء والخضراء، كمن يعبر حقلاً. أجل، كنت في حلم من جديد، غير أنّه أكثر سكوناً من الحلم قبل قليل في مطعم «لي كالانك». ظهرت السيّارة لحظة وصولي إلى ساحة البيراميد، وإذ شعرت بذلك الألم في ساقي، قلت لنفسي إنّني سوف أستيقظ.

Twitter: @ketab_n

في غرفة عيادة ميرابو، بعد الحادث، تسنّى لي أن أفكّر مليّاً. تذكّرت في بادئ الأمر ذاك الكلب الذي دهسته سيّارة بعد ظهر أحد أيّام طفولتي، ثمّ طفا إلى ذاكرتي شيئاً فشيئاً حادث يعود إلى الفترة ذاتها. أعتقد أنّني تجنّبت حتّى ذلك الحين التفكير فيه. وحدها رائحة الأثير كانت تذكّرني به أحياناً، تلك الرائحة السوداء والبيضاء التي تجعلنا نغور حتّى نقطة توازن هشّ ما بين الحياة والموت. عذوبة منعشة والانطباع بأنّنا نتنفّس أخيراً في الهواء الطلق، وكذلك في بعض اللحظات بلادة كفن. في الليلة السابقة، في مستشفى أوتيل ديو، حين وضع الرجل كمامة على وجهي لأغرق في النوم، عندها تذكّرت أنّني عشت ذلك من قبل. الليلة ذاتها، الحادث ذاته، رائحة الأثير ذاتها.

Twitter: @ketab_n

كان ذلك عند الخروج من مدرسة. كان الملعب يطلّ على جادّة منحدرة بشكل طفيف، تحيط بها أشجار ومنازل لم أعد أذكر تماماً إن كانت فيلّات، بيوتاً ريفيّة أو مساكن صغيرة في الضواحي. أقمت طوال طفولتي في أمكان مختلفة إلى حدٍّ أن اختلطت ذكراها في ذهني في نهاية الأمر. ربّما كانت الذكرى التي أحتفظ بها عن تلك الجادّة تختلط بذكرى جادّة في بياريتز أو شارع منحدر في جْوي أون جوزاس. أقمت لبعض الوقت في الفترة ذاتها في البلدتين، وأعتقد أنّ السيّارة دهست الكلب في شارع الدكتور كورزين، في جْوي أون جوزاس.

كنت خارجاً من الصفّ عند العصر. لا بدّ أنّنا كنّا في الشتاء. كانت العتمة مخيّمة. كنت أنتظر على الرصيف حتّى يأتي أحد ويصطحبني. لم يعد هناك أحد تقريباً من حولي. بوّابة المدرسة كانت موصدة. ولا أضواء خلف النوافذ. لم أكن أدري أيّ طريق أسلكه للعودة إلى المنزل. أردت أن أعبر الجادّة، لكن ما إن نزلت عن الرصيف حتّى «فرملت» شاحنة صغيرة فجأةً وصدمتني. كنت مصاباً في كاحلي. حملوني ومدّدوني في الخلف، تحت

Twitter: @ketab_n

الشادر. صعد أحد الرجلين بجانبي. وحين أُديرَ المحرّك، صعدت امرأة. كنت أعرفها. كنت أسكن معها في المنزل. أذكر وجهها. كانت شابّة، حوالى الخامسة والعشرين من العمر، شعرها أشقر أو كستنائيّ فاتح، وعلى خدّها ندبة. انحنت صوبي وأمسكت يدي. كانت تلهث وكأنّها كانت تركض. شرحَت للرجل بجانبنا أنّها وصلَت متأخّرة لأنّ سيّارتها تعطّلت. قالت له «إنّها قادمة من باريس». توقّفت الشاحنة الصغيرة أمام سياج حديقة. كان أحد الرجلين يحملني وكنّا نعبر الحديقة. كانت لا تزال تمسك يدي. دخلنا المنزل. كنت ممدّداً في سرير. غرفة جدرانها بيضاء. انحنت راهبتان فوقي، ووجهاهما محزّمان في غطاءي رأسيهما الأبيضين. وضعتا على أنفي الكمامة السوداء ذاتها كما في مستشفى أوتيل ديو. وقبل أن أغفو، شممت رائحة الأثير البيضاء والسوداء.

*

في ما بعد الظهيرة تلك، عند خروجي من العيادة، تبعت رصيف السين نحو جسر غرونيل. كنت أحاول أن أتذكّر ماذا حصل في الماضي، حين استقيظت، عند

Twitter: @ketab_n

الراهبات. فالغرفة ذات الجدران البيضاء التي نقلوني إليها كانت تشبه الغرفة في عيادة ميرابو. ورائحة الأثير كانت هي نفسها كما في مستشفى أوتيل ديو. هذا ما يمكن أن يساعدني في بحثي. يُقال إنّ الروائح هي أكثر ما يحيي الماضي، ورائحة الأثير لطالما كان لها تأثير غريب عليّ. كان يبدو لي أنّها رائحة طفولتي بامتياز، لكن بما أنّها على ارتباط بالنوم وأنّها تزيل الألم أيضاً، فإنّ الصور التي تكشفها كانت تتشوّش على الفور. لا شكّ أنّ هذا ما كان يجعلني أحتفظ عن طفولتي بذكرى غائمة إلى هذا الحدّ. الأثير يحرّك الذاكرة والنسيان في آن.

الخروج من المدرسة، الشاحنة الصغيرة المغطّاة بشادر، بيت الراهبات... كنت أبحث عن تفاصيل أخرى. رأيتُني إلى جانب المرأة في سيّارة، كانت تفتح بوّابة، وكانت السيّارة تسلك ممرّاً... كانت تشغل غرفة في الطابق الأوّل من المنزل، الغرفة الأخيرة عند نهاية الرواق. لكنّ شذرات الذاكرة تلك كانت مبهمة حتّى لم يكن بوسعي استبقاؤها. وحده الوجه كان واضحاً، مع الندبة على الخدّ، وكنت على قناعة تامّة بأنّ ذلك الوجه هو نفسه الذي رأيته الليلة

Twitter: @ketab_n

الماضية في مستشفى أوتيل ديو.

وصلت وأنا أتبع الرصيف إلى زاوية شارع ألبوني، عند الفسحة التي يعبر فيها المترو فوق الأرض. كانت الساحة على مسافة أبعد بقليل، في اتّجاه متعامد مع الشارع. توقّفت عشوائياً أمام مبنى ضخم، بوّابته من الزجاج والحديد المزخرف الأسود. خطر لي أن أعبر البوّابة العريضة ذات الدفّتين وأسأل الناطورة في أيّ طابق تقيم جاكلين بوسرجان، وفي حال ما إذا كانت تسكن فعلاً هناك، أن أدقّ على بابها. لكن لم يكن من طباعي إطلاقاً أن أدقّ على باب الناس بشكل مباغت. لم ألتمس يوماً أيّ شيء من أحد، ولم أطلب مساعدة أيّ كان.

كم من الوقت انقضى بين ذاك الحادث عند الخروج من المدرسة، وحادث الليلة الماضية في ساحة البيراميد؟ خمس عشرة سنة، أو أقلّ. المرأة في حافلة الشرطة وفي مستشفى أوتيل ديو كانت تبدو شابّة. لا يتغيّر الواحد كثيراً في خمس عشرة سنة. صعدْتُ الأدراج حتّى محطّة باسّي للمترو. وفيما كنت أنتظر قدوم القطار على رصيف المحطّة الصغيرة، كنت أبحث عن الأدلّة التي تبيّن لي إن كانت

Twitter: @ketab_n

تلك المرأة في ساحة ألبوني هي ذاتها المرأة قبل خمس عشرة سنة. لا بدّ أيضاً من وضع اسم لذلك المكان حيث كانت المدرسة، بيت الراهبات، والمنزل الآخر الذي سكنْتُ فيه على الأرجح لبعض الوقت، وحيث كانت هي تقطن غرفة في نهاية الرواق. كان ذلك يعود إلى فترة إقامتي في بياريتز وجْوي أون جوزاس. قبل ذلك؟ أم بين الاثنين؟ بالتسلسل الزمني، بياريتز أوّلاً، ثمّ جْوي أون جوزاس. وبعد جْوي أون جوزاس، العودة إلى باريس والذكريات التي تزداد وضوحاً، لأنّني كنت بلغت ما يُعرف بسنّ الرّشد. وحده والدي كان بوسعه أن يعطيني معلومات مبهمة، لكنّه اختفى. كان عليّ إذاً أن أتدبّر أمري بنفسي، وعلى أيّة حال، كان ذلك يبدو لي طبيعيّاً تماماً. كان المترو يعبر نهر السين في اتّجاه الضفّة اليسرى. بعد قليلٍ سوف يحاذي واجهاتٍ كلّ نافذة مضاءة فيها هي لغز لي. وخلال الأسبوع الذي تلى الحادث، صادفت الدكتور بوفيار ذات مساء في المترو. كانت تلك مفاجأة كبيرة لي. لم يُلفِ هو لقاءنا مدهشاً إطلاقاً، وشرح لي أنّ المواقف ذاتها والوجوه ذاتها غالباً ما تعاودنا في حياتنا. قال لي إنّه خلال أحد اجتماعاتنا

Twitter: @ketab_n

المقبلة، سوف يتناول موضوع «العَود الأبديّ». أحسست به على وشك أن يبوح لي بسرّ. «لا بدّ أنّك فوجئت في ذلك اليوم لرؤيتي في حالة خارجة عن العادة». كان يحدّق بي بنظرة تكاد تكون عطوفة. لم يعد هناك أثر لأيّ كدمة على وجهه وعنقه. «أترى يا صغيري... ثمّة أمر أخفيته لفترة طويلة عن نفسي حتّى... أمر لم أجاهر به يوماً». ثمّ تمالك نفسه. هزّ رأسه. «عذراً...» ابتسم لي. بدا عليه ارتياح واضح لإحجامه في اللحظة الأخيرة عن الإدلاء باعتراف فادح. راح يثرثر بغزارة مسترسلاً في سخافات، كأنّه يريد التمويه. نهض ونزل في محطّة بيغال. شعرت ببعض القلق عليه.

*

عند الخروج من محطّة المترو في عصر ذلك اليوم، دخلت إلى صيدليّة. قدّمت الوصفة التي كتبوها لي في العيادة، مستفسراً عن كيفيّة وضع الضمادات. أراد الصيدليّ معرفة ما الذي سبّب جرحي. حين شرحت له أنّ سيّارة صدمتني، قال لي: «آمل أن تكون قدّمت شكوى...» ثم أضاف مصرّاً: «إذاً، هل قدّمت شكوى؟...» لم أجرؤ على

Twitter: @ketab_n

عرض الورقة التي وقّعتها في عيادة ميرابو له. كانت تبدو لي غريبة، تلك الورقة. كنت أعتزم معاودة قراءتها بهدوء في غرفتي. قبل خروجي من الصيدليّة، قال لي: «ولا تنسَ في كلّ مرّة أن تعقّم الجرح بالمطهّر...».

عند العودة إلى الفندق، اتّصلت بالاستعلامات للحصول على رقم جاكلين بوسرجان، ساحة ألبوني. كان اسمها مجهولاً لدى كلّ الأرقام في هذه الساحة. بدت لي غرفتي أضيق من العادة، وكأنّني عائد إليها بعد سنوات من الغياب، أو حتّى كأنّني سكنتها في حياة سابقة. هل يُعقل أن يكون حادث الليلة الماضية تسبّب بصدع في حياتي حتّى بات هناك ما قبله وما بعده؟ عددت الأوراق الماليّة. في مطلق الأحوال، لم أكن يوماً بهذا الثراء. انتهت لبعض الوقت الأشواط المضنية عبر باريس لأبيع صاحب مكتبة بربح هزيل ما كنت اشتريته للتوّ من مكتبة أخرى.

كان كاحلي يؤلمني. لم أشعر بالشجاعة الكافية لتبديل الضمادة. تمدّدت على السرير، شابكاً يديّ خلف رأسي، وحاولت التأمّل في الماضي. لم يكن ذلك من عادتي. جهدت منذ زمن طويل لنسيان طفولتي، من غير أن

Twitter: @ketab_n

أشعر يوماً بكثير من الحنين إليها. لم أكن أملك أيّ صورة، أيّ أثر ماديّ لتلك الحقبة، باستثناء دفتر لقاحات قديم. أجل، بدا لي بعد التدقيق أنّ حادثة الخروج من المدرسة والشاحنة الصغيرة والراهبات وقعت ما بين بياريتز وجْوي أون جوزاس. كنت إذاً في حوالى السادسة من العمر. بعد جْوي أون جوزاس، انتقلت إلى باريس والمدرسة الحكوميّة في شارع بون دو لودي، ثمّ مختلف المدارس الداخليّة والثكنات عبر أرجاء فرنسا: سان لو، سافوا العليا، بوردو، ميتز، باريس من جديد حتّى اليوم. في نهاية الأمر، إنّ اللغز الوحيد في حياتي، الحلقة الوحيدة غير المربوطة بباقي السلسلة، هي ذاك الحادث الأوّل مع الشاحنة الصغيرة وتلك المرأة الشابّة أو الفتاة التي تأخّرت في ذلك المساء «لأنّ سيّارتها تعطّلت وكانت قادمة من باريس». ولم تعد تلك الواقعة المنسيّة لتطفو إلى ذاكرتي إلاّ مع صدمة الليلة الماضية في ساحة البيراميد. ماذا كان الدكتور بوفيار ليقول عن ذلك؟ هل كان سيستخدم هذا المثل من بين سواه ليوضّح من خلاله في الاجتماع المقبل في دانفير روشرو موضوع العَود الأبديّ؟ لكنّ المسألة لم

Twitter: @ketab_n

تكن تقتصر على ذلك. بدا لي أنّ ثغرة انشقّت في حياتي وانفتحت على أفق مجهول.

نهضت وتناولت عن أعلى رفّ في الخزانة علبة الكرتون الكحليّة حيث وضّبت كلّ تلك الأوراق القديمة التي قد تثبت لاحقاً أنّني عبرت فعلاً على هذه الأرض. إفادة ولادة طلبتها للتوّ من بلديّة بولوني-بيانكور للاستحصال على جواز سفر، شهادة من أكاديميّة غرونوبل تثبت أنّني حصلت على الباكالوريا، بطاقة عضويّة في جمعيّة حماية الحيوانات، وفي بطاقة خدمتي العسكريّة، وثيقة عمادتي الصادرة عن رعيّة سان مارتان في بياريتز، ودفتر اللقاحات ذاك القديم جدّاً. فتحته واستعرضت لأوّل مرّة قائمة اللقاحات وتواريخها. أحدها تمّ في بياريتز على يد طبيب يدعى فالا. ثمّ بعد ستّة أشهر، لقاح آخر يشهد عليه ختم طبيب يدعى ديفوار في فوسومبرون لا فوريه، مقاطعة لوار إيه شير. ثمّ آخر أيضاً، بعد سنوات، في باريس... ها أنّني وجدته، ذلك الدليل. سيكون إبرة ضائعة إلى الأبد في كومة قشّ، أو إذا ما حالفني الحظّ، خيطاً يسمح لي بإعادة مجرى الوقت إلى الوراء: الدكتور

Twitter: @ketab_n

ديفوار، فوسومبرون لا فوريه.

بعد ذلك، أعدت قراءة تقرير الحادث الذي أعطاني إيّاه الرجل الأسمر الجسيم عند خروجي من العيادة واحتفَظَ هو بنسخة عنه. لم أدرك حينها أنّه مكتوب باسمي وأنّه يبدأ بعبارة «أنا الموقّع أدناه...» ثمّ أنّ الكلمات المستخدمة كانت توحي بأنّني أنا المسؤول عن الحادث... «لحظة عبور ساحة البيراميد، بمستوى قناطر شارع ريفولي وفي اتّجاه الكونكورد، لم أتنبّه لوصول سيّارة الفيات باللون الأخضر المائيّ التي تحمل رقم التسجيل 3212 إف إكس 75. حاولت السائقة، الآنسة جاكلين بوسرجان، أن تنعطف لتجنّبي، فصدمت سيّارتها إحدى قناطر الساحة...» أجل، ربّما كانت تلك هي الحقيقة. تلك السيّارة لم تكن مسرعة وكان يجدر بي النظر إلى اليسار قبل عبور الشارع، لكنّني في تلك الليلة لم أكن أعي ما أفعل. جاكلين بوسرجان. لا أحد بهذا الاسم في ساحة ألبوني، هذا ما أعلنوه لي في الاستعلامات. سألت عن عدد أرقام المباني في الساحة. ثلاثة عشر رقماً. لا بدّ، بقليل من الصبر، من العثور في نهاية المطاف على رقمها.

Twitter: @ketab_n

نزلت من غرفتي بعد وقت وعاودت الاتّصال بالاستعلامات. لم يكن هناك أيّ دكتور ديفوار في فوسومبرون لا فوريه. مشيت وأنا أعرج قليلاً حتّى المكتبة الصغيرة، في بداية جادّة جوردان. اشتريت فيها خارطة ميشلان لمقاطعة لوار إيه شير. استدرت عائداً أدراجي في اتّجاه مقهى «بابل». كانت ساقي تؤلمني. جلست إلى إحدى الطاولات على السطيحة المزجّجة. فوجئت حين رأيت على ساعة الجدار أنّ الوقت كان لا يزال السابعة مساء، وأسفت حقّاً لرحيل هيلين نافاشين. كان بودّي التحدّث إلى أحد. هل أمشي حتّى مبنى جنفياف دالام، على مسافة قليلة؟ لكن لا بدّ أنّها برفقة الدكتور بوفيار، إن لم يكن هو لا يزال في بيغال. يجب أن ندع الناس يعيشون حياتهم بسلام. لا، لن أدقّ على باب جنفياف دالام بغتة... ففرشت خارطة ميشلان واستغرق الأمر بي طويلاً حتّى عثرت على فوسومبرون. لكنّ الأمر كان يهمّني كثيراً، كان يجعلني أنسى وحدتي. ساحة ألبوني. فوسومبرون لا فوريه. كنت على وشك معرفة شيء هامّ عن نفسي، شيء يمكن أن يغيّر مجرى حياتي.

Twitter: @ketab_n

على رصيف النهر، كان مقهيان يتقابلان من جانبَي مدخل شارع ألبوني. الأكثر اكتظاظاً بينهما كان المقهى إلى اليمين. كانوا يبيعون فيه السجائر والصحف. حين وصل دوري أخيراً، سألت صاحب المكان إن كان يعرف امرأة تدعى جاكلين بوسرجان. لا، هذا الاسم لم يكن يوحي له بأحد. سيّدة شقراء تسكن في الجوار. تعرّضت لحادث سير. لا، لا يذكر، لكن يمكنني ربّما الاستعلام في المرآب الكبير، بعد مسافة، على رصيف النهر، قبل حدائق التروكاديرو، ذاك المرآب المتخصّص في بيع السيّارات الأميركيّة. كان لديهم الكثير من الزبائن في الحيّ. أصيبت بجرح في وجهها؟ أمور كهذه لا يمكن أن يغفل الواحد عنها. من الأفضل أن تسأل في المرآب. لم يدهشه سؤالي،

Twitter: @ketab_n

وأجاب عليه بصوت لبق، سئم بعض الشيء، لكنّني ندمت على ذكر اسم جاكلين بوسرجان أمامه. يجدر الانتظار إلى أن يأتي الآخرون صوبنا بشكل عفويّ. عدم القيام بحركات مباغتة. بل البقاء بلا حراك، صامتين، والتماهي مع المكان المحيط بنا إلى أن نصبح جزءاً منه. كنت أجلس دائماً على الطاولة الأكثر انزواء. وأنتظر. كنت من الصنف الذي يتوقّف عند ضفّة بحيرة عند المغيب ويدع نظره يتأقلم مع العتمة قبل أن يبصر اضطراب المياه الراكدة. ازدادت لديّ القناعة، وأنا أتسكّع في الشوارع المجاورة، بأنّني سوف أعثر عليها من غير أن أسأل أحداً أيّ شيء. كنت أسير في منطقة حسّاسة، واستغرق الأمر وقتاً طويلاً للوصول إليها. كلّ تطوافي عبر باريس، رحلات طفولتي من الضفة اليسرى إلى غابة فانسين وغابة بولونيا، من الجنوب إلى الشمال، اللقاءات مع والدي، وتجوالي خلال السنوات الأخيرة، كلّ ذلك قادني نحو هذا الحيّ الواقع على سفح تلّة، على ضفّة السين، حيّ يمكن وصفه ببساطة بأنّه «سكنيّ» أو «عاديّ» كسائر الأحياء. حُدّد لي موعد فيه في رسالة تعود ألى خمسة عشر عاماً، تلقّيتها في اليوم

Twitter: @ketab_n

السابق. لكن لم يفت الأوان بالنسبة لي: ثمّة من لا يزال ينتظرني خلف إحدى هذه النوافذ المتشابهة كلّها، في واجهات هذه المباني التي يتعذّر التمييز فيما بينها.

*

كنت جالساً ذات صباح في المقهى إلى اليمين، عند زاوية رصيف النهر وشارع ألبوني، حين دخل رجل برفقة رجل آخر وجلسا عند المنضدة. عرفت الأسمر الجسيم على الفور. كان يرتدي المعطف الداكن ذاته كما في ليلة الحادث وعند خروجي من عيادة ميرابو.

حاولت الحفاظ على هدوئي. لم يكن لاحظ وجودي. رحت أنظر إليهما من الخلف، جالسَين عند المنضدة. كانا يتكلّمان بصوت منخفض جدّاً. الآخر كان يدوّن ملاحظات على مفكّرة ويهزّ رأسه بين الحين والآخر وهو يستمع إلى ما يقوله له الأسمر الجسيم. كنت جالساً إلى طاولة قريبة نوعاً ما من المنضدة، لكنّني لم أكن أميّز أيّاً من كلامهما. لماذا أعطاني ذلك الانطباع بأنّه «أسمر جسيم» حين كنّا جالسَين جنباً إلى جنب أنا والمرأة على كنبة الردهة، ورأيته يتقدّم صوبنا؟ لا شكّ أنّ رؤيتي كانت مشوّشة على

Twitter: @ketab_n

إثر صدمة الحادث. وحين خرجت من العيادة في ذلك اليوم الآخر، لم أكن استعدت وعيي تماماً بعد. الحقيقة أنّ قامته لم تكن تخلو من بعض الأناقة، لكن كان ثمّة فظاظة وقسوة في جبينه الضيّق الذي يلتهم شعره أعلاه وقسمات وجهه التي ذكّرتني بممثّل أميركيّ غاب اسمه عن ذهني.

تردّدت بضع لحظات. لا بدّ لي رغم كلّ شيء من اغتنام الفرصة. نهضت واتّكأت إلى المنضدة بجانبه. كان يدير لي ظهره تقريباً وانحنيت للفت انتباهه. رفيقه هو الذي لاحظ أنّني كنت أودّ مكالمته. ربّت على كتفه وهو يشير إليّ بإصبعه. التفتَ صوبي. بقيت ساكتاً، لكن لا أعتقد أنّ ذلك كان بدافع الخجل المحض. كنت أبحث عن كلمات أقولها. كنت آمل أن يتذكّرني. لكنّه كان يحدّق بي بنظرة مندهشة ومستاءة. «إنّني سعيد برؤيتك من جديد»، قلت له مادّاً يدي. صافحني بحركة تلقائيّة من غير تفكير. «هل التقينا من قبل؟» سألني مقطّباً. «في المرّة الأخيرة، على مقربة من هنا. في عيادة ميرابو». كان الرجل الآخر يحملق فيّ أيضاً بنظرة باردة. «عفواً؟ لم أفهم...» كانت ابتسامة حائرة ترتسم على شفتيه. «أين قلت؟» «- في

Twitter: @ketab_n

عيادة ميرابو.» «- إنّك مخطئ...» كان يتفرّس فيّ، مقلّباً النظر من رأسي إلى أخمص قدميّ. ربّما أراد أن يقيّم التهديد الذي كنت أشكّله له. لاحظ حذائي الأيسر. كنت وسّعت الشقّ في خفّي بسبب الضمادة. حتّى أنّني قصصت القسم الأكبر من جلد الحذاء إن كنت أذكر جيّداً، لأحرّر مشط قدمي، وكنت أضع الضمادة بدون جورب، مثل الرباط الذي يلفّ أحياناً أرساغ خيول السباق بسبب هشاشتها. «إنّه الحادث»، قلت له. لكن بدا عليه أنّه لا يفهم. «أجل، حادث الليلة الماضية... ساحة البيراميد...» كان يتأمّلني بصمت. خُيّل لي أنّه يستهزئ بي. «بالمناسبة، قلت له، أودّ الاستعلام عن جاكلين بوسرجان...» وضع سيجارة بين شفتيه ومدّ له الآخر ولّاعة من غير أن يحوّل هو أيضاً نظره عنّي. «لا أفهم شيئاً ممّا تقوله لي سيّدي». كان في نبرته قدر من الازدراء، تلك النبرة التي نتّخذها حين نكلّم مشرّداً أو سكّيراً. كان صاحب المقهى اقترب منّا، مستغرباً سلوكي حيال زبون بدا أنّه يحترمه - لا بل حتّى يخشاه. وصحيح أنّه كان هناك ما يبعث الوجل في ذلك الوجه، وذلك الشعر الداكن الذي يلتهم الجزء الأعلى من الجبين. وحتّى

Twitter: @ketab_n

في نبرة الصوت الغليظ الذي فيه بحّة طفيفة. لكنّ ذلك لم يكن يخيفني. فأنا رأيت منذ طفولتي الكثير من الأشخاص الغريبي الأطوار برفقة والدي... لم يكن ذلك الرجل أكثر رهبة من الآخرين. «أردت أن أقول لك أيضاً... لست بحاجة فعلاً إلى كلّ هذا المال...» أخرجت من جيب سترتي الداخليّة رزمة الأوراق الماليّة التي سلّمني إيّاها عند خروجي من عيادة ميرابو والتي كنت أحملها معي على الدوام. قام بإشارة بيده فيها جفاء واحتقار. «آسف سيّدي... كفى...» ثمّ استدار نحو جاره. استأنفا حديثهما بصوت منخفض، متجاهلَين وجودي. عدت وجلست إلى طاولتي. خلف المنضدة، كان صاحب المقهى يحدّق بي هازّاً رأسه، كأنّما ليقول لي إنّني شخص سفيه وإنّني نجوت بجلدي هذه المرّة. لماذا؟ وددت لو أعرف.

حين خرجا من المقهى، لم يلتفتا إليّ للحظة. رأيتهما من خلف الزجاج يسيران على رصيف الطريق المحاذي للنهر. تردّدت في اللّحاق بهما. لا، ينبغي عدم التسرّع وافتعال الأمور بالقوّة. وكنت نادماً على فقدان هدوئي أمام ذلك الرجل. كان يجدر بي أن أبقى في زاويتي من

Twitter: @ketab_n

غير أن ألفت انتباهه، وأنتظر حتّى يخرج لأتبعه، وأعرف من يكون، وإن كان من الممكن أن يرشدني إليها. لكنّني كنت أخشى بإهداري هذه الفرصة أن أكون قطعت كلّ الروابط الممكنة بها.

كان صاحب المقهى لا يزال يتأمّلني ببعض الملامة من خلف المنضدة. «لا بدّ أنّني أخطأت وخلته شخصاً آخر، قلت له. هل تعرف اسم ذلك السيّد؟» تردّد للحظة، ثم قال لي كأنّما على مضض: «سوليار». شرح لي أنّه من حسن حظّي أنّ سوليار ذاك لم يمتعض كثيراً من سلوكي حياله. أيّ سلوك؟ ثمّة سيّارة صدمتني الليلة الماضية، وكنت أسعى ببساطة للتعرّف إلى السائق والعثور عليه. ألم يكن ذلك من حقّي؟ أعتقد أنّني لم أنجح في إقناعه. ابتسم. «أفهم ذلك...» «- ومن يكون سوليار ذاك بالضبط؟» سألته. انشرحت ابتسامته، وكأنّه وجد سؤالي طريفاً. «ليس ملاكاً، أجابني. لا، بالتأكيد، لا يمكن القول أنّه من صنف أطفال جوقة الترتيل...» أحسست من كلامه الملتبس أنّني لن أحصل منه على المزيد من المعلومات. «هل يقطن في الحي؟» «- سكن في الحيّ في الماضي، لكن

Twitter: @ketab_n

لم يعد يعيش هنا على ما أعتقد...» «- وهل تعرف إن كان متزوّجاً؟» «- لا يسعني أن أجزم بذلك». دخل زبائن آخرون قاطعوا حديثنا. وعلى أيّة حال، لم يعد يعيرني اهتماماً. كان من الادّعاء حقّاً من جانبي أن أظنّ أنّه كان يعلّق أدنى أهميّة على الكلام الذي تبادلته مع سوليار قبل قليل. الزبائن يدخلون ويخرجون، متهامسين فيما بينهم. كما ترد أيضاً أصداء أصوات. أحياناً يضطرّون حتّى إلى استدعاء شرطة النجدة في وقت متأخّر جدّاً من الليل. وسط هذه الضوضاء وهذه الحركة المتواصلة، لا بدّ في نهاية الأمر أن تعْلق بعض الوجوه والأسماء في الذاكرة، لكن ليس لوقت طويل.

*

قلت في نفسي إنّه إن حالفني الحظّ قليلاً، فسوف تظهر لي السيّارة من جديد، مركونة في الجوار. مشيت حتّى المرآب الكبير على رصيف النهر، وسألت الرجل عند محطّة البنزين إن كان يعرف بالصدفة بين زبائنه امرأة شقراء تعرّضت مؤخّراً لحادث سير وجُرحت في وجهها. كانت تقود سيّارة فيات خضراء مائيّة. فكّر للحظة. لا، هذا

Twitter: @ketab_n

لا يذكّره بأحد. فحركة المرور كثيفة للغاية على رصيف النهر... لكأنّه طريق عامّ. لم يعد حتّى يعير اهتماماً لوجوه الزبائن. ثمّة أعداد غفيرة جدّاً من الزبائن. ومن السيّارات من نوع فيات. والكثير الكثير من الشقراوات... مضيت أبعد بقليل، ووجدت نفسي في حدائق التروكاديرو. خلت في بادئ الأمر أنّني أمشي في هذه الحدائق لأوّل مرّة، لكن حين وصلت أمام مبنى الأكواريوم[1]، عاودتني ذكرى مبهمة جدّاً من طفولتي. قطعت تذكرة ودخلت. مكثت طويلاً أتأمّل الأسماك خلف الواجهات الزجاجيّة. كانت ألوانها الفوسفوريّة تحرّك فيّ شيئاً غامضاً. سبق أن اصطحبني أحد ما إلى هنا، لكنّه لا يسعني أن أحدّد في أيّ فترة بالضبط. قبل بياريتز؟ بين بياريتز وجوي أون جوزاس؟ أم كان ذلك عند بداية عودتي إلى باريس، في وقت لم أكن بلغت فيه تماماً سنّ الإدراك بعد؟ كان يبدو لي أنّ ذلك كان في الفترة ذاتها التي صدمتني فيها الشاحنة الصغيرة عند الخروج من المدرسة. ثمّ تذكّرت، وأنا أتأمّل الأسماك وسط الصمت المخيّم، جواب صاحب المقهى

(1) حوض سمك.

Twitter: @ketab_n

حين سألته من هو بالتحديد سوليار ذاك: «ليس ملاكاً... ليس من صنف أطفال جوقة الترتيل». أنا نفسي كنت في جوقة ترتيل وأنا طفل، لمرّة واحدة في حياتي. لم يكن الأمر يتبادر إطلاقاً إلى ذهني، وعاودتني الذكرى فجأة. كان ذلك في قدّاس منتصف الليل، في كنيسة قرية. ومهما نقّبت وقلّبت في ذاكرتي، فإنّ ذلك لا يمكن أن يكون إلّا في فوسومبرون لا فوريه، حيث المدرسة وبيت الراهبات والمدعوّ دكتور ديفوار الذي قيل لي في الاستعلامات إنّه لم يعد مدرجاً في الدليل. إنّها هي التي اصطحبتني إلى قدّاس منتصف الليل وإلى أكواريوم التروكاديرو، هي وليس سواها. كانت تمسك بيدي تحت شادر الشاحنة الصغيرة، وكانت تحني وجهها صوبي. كانت الذكرى أكثر انقشاعاً بكثير في تلك القاعة الغارقة في الصمت، يضيئها نور أحواض الأسماك. كان أحد يمسك بيدي في طريق العودة من قدّاس منتصف الليل، على طول الشارع الضيّق وحتّى بوّابة المنزل. المرأة ذاتها. وجئت فعلاً إلى هنا، في الفترة ذاتها، تأمّلت الأسماك ذاتها المزركشة بالألوان التي كانت تنزلق خلف الزجاج، في صمت. ما كنت لِأُفاجَأ

Twitter: @ketab_n

لو سمعت وقع خطى خلفي، ورأيتها حين ألتفِتُ تقترب وكأنّ كلّ تلك السنوات لم تكن. على أيّة حال، كنّا نقطع المسافة من فوسومبرون لا فوريه إلى باريس في السيّارة ذاتها التي صدمتني في ساحة البيراميد، سيّارة خضراء مائيّة. هي لم تتوقّف يوماً عن التجوال ليلاً في شوارع باريس بحثاً عنّي.

عند الخروج من الأكواريوم، لفحني البرد. كان هناك أكوام صغيرة من الثلج في الممرّات وفوق عشب الحديقة. السماء زرقاء صافية. لأوّل مرّة في حياتي، شعرت بأنّني أبصر الأمور بوضوح. هذه الزرقة التي يرتسم عليها قصر شايو بانقشاع حادّ، هذا البرد اللّاسع بعد سنوات وسنوات من الخدر... حادث الليلة الماضية وقع في الوقت المناسب. كنت بحاجة إلى صدمة توقظني من سباتي. لم يعد بوسعي الاستمرار بالسير في الضباب... ووقع ذلك قبل أشهر قليلة من بلوغي سنّ الرشد. يا لها من صدفة عجيبة. نجوت بمشقّة. سيكون هذا الحادث بالتأكيد من النقاط الفاصلة الأكثر تأثيراً في حياتي. إنّه تحذير.

المدرسة والشاحنة الصغيرة المكسوّة بشادر... كانت

Twitter: @ketab_n

هذه أوّل مرّة ألتفت فيها إلى الماضي. تطلّب ذلك صدمة الحادث الليلة الماضية. عشت حياتي حتّى ذلك الحين يوماً بيوم. كنت سائقاً يقود سيّارة على طريق مكسوّ بالجليد، وكأنّ رؤيته منعدمة عليها. كان يجدر تجنّب النظر إلى الخلف. ربّما سلكتُ جسراً ضيّقاً للغاية. من المستحيل الاستدارة والعودة. إن ألقيت نظرة واحدة في المرآة الخلفيّة غلبني الدوار. لكنّني اليوم بات بوسعي دونَ وجلٍ التأمّل بصفاء في كلّ تلك السنوات العجاف المنصرمة. لكأنّ شخصاً آخر غيري يطلّ من ارتفاع على مشهد حياتي كاملاً، أو لكأنّني أتبصّر في صورتي الشعاعيّة على شاشة مضيئة. كلّ شيء في غاية الصفاء، الخطوط دقيقة ونقيّة إلى أقصى حدّ... لم يبقَ سوى الأساسيّ: الشاحنة الصغيرة، ذلك الوجه المنحني نحوي تحت الشادر، الأثير، قدّاس منتصف الليل وطريق العودة حتّى بوّابة المنزل حيث كانت غرفتها في الطابق الأوّل، في طرف الرواق.

Twitter: @ketab_n

رصدت فندقاً بعد جسر بئر حكيم[1]، في الجادّة الصغيرة المؤدّية إلى رصيف النهر. بعد انقضاء ثلاثة أيّام، لم أعد أرغب في العودة للمبيت عند بوّابة أوليان، فنزلت في غرفة في فندق فريميه ذاك، متسائلاً عمّن يمكن أن يكون النزلاء الآخرون. كانت غرفة مريحة أكثر من الغرفة في شارع فوا فيرت، مجهّزة بهاتف وحتّى بحمّام. لكنّه كان بوسعي السماح لنفسي بهذا الترف بفضل النقود التي قدّمها لي سوليار ذاك عند خروجي من العيادة، والتي رفض أن أردّها له. فليكن! من الحماقة حقّاً أن أشعر بالحرج. فهو في نهاية المطاف لم يكن ملاكاً.

(1) باسم معركة بئر حكيم، التي وقعت بين 27 مايو/نوّار و11 يونيو/حزيران سنة 1942 في الصحراء اللّيبية بين القوات الفرنسية الحرّة (FFL) والقوّات الألمانية والإيطالية.

Twitter: @ketab_n

قرّرت خلال الليل في تلك الغرفة ألّا أعود من بعد إلى شارع فوا فيرت. كنت حملت معي بعض الملابس وعلبة الكرتون الكحليّة التي كانت تحوي أوراقي القديمة. لا بدّ لي من الإقرار بالحقيقة الجليّة: لن يبقى أيّ أثر لي هناك. وذلك الخاطر لم يكن يبعث فيّ أيّ حسرة، بل على العكس كان يمنحني الشجاعة لمواجهة المستقبل. فأنا تخلّصت من عبء ثقيل.

كنت أعود متأخّراً إلى الفندق. أتناول العشاء في صالة مطعم كبير، بعد الأدراج ومحطّة المترو. ما زلت أذكر اسم المكان: «لا كلوزري دو باسي». لم يكن يرتاده الكثير من الزبائن. وجدت نفسي في بعض الليالي وحيداً فيه مع صاحبته، امرأة سمراء شعرها مقصوص قصيراً جدّاً، والنادل الذي كان يرتدي سترة بحّارٍ بيضاء. وفي كلّ مرّة، كنت آمل أن تدخل جاكلين بوسرجان وتتوجّه نحو البار، كما يفعل شخصان أو ثلاثة كانوا يجلسون ويتحادثون مع صاحبة المطعم. كنت أختار الطاولة الأقرب إلى المدخل. سوف أنهض وأتقدّم نحوها. قرّرت مسبقاً ما سأقول لها... «حصل لنا حادث سير عند ساحة البيراميد...»

Twitter: @ketab_n

يكفي أن تراني أمشي. خفّي المشقوق، الضمادة... في فندق فريمييه، تفحّصني موظّف مكتب الاستقبال مقطّباً. كانت بقعة الدم لا تزال تلطّخ سترتي. أحسستُ به مرتاباً. دفعتُ له بدل الغرفة مسبقاً لخمسة عشر يوماً.

أمّا صاحبة «لا كلوزري»، فلم تأبه لمنظر ضمادتي وبقعة الدم على سترتي القديمة. الظاهر أنّها رأت أعظم من ذلك، وفي أحياء أقلّ هدوءاً. كان هناك ببّغاء في قفص كبير أصفر قرب البار. بعد عشرات السنين، كنت أتصفّح مجلّة من تلك الفترة، وكان هناك على صفحتها الأخيرة إعلانات لمطاعم، لفتني أحدها على الفور: «لا كلوزري دو باسي وببّغاؤها بيبير. مفتوح كلّ أيّام الأسبوع». جملة عاديّة ظاهريّاً، غير أنّها جعلت قلبي يخفق. في إحدى الليالي، شعرت بوطأة الوحدة شديدة عليّ، ففضّلت الجلوس إلى البار مع الآخرين. كنت أحدس لدى صاحبة المطعم بعض العطف حيالي، بسبب سترتي القديمة المبقّعة، وضمادتي ونحولي. كانت تنصحني بتناول صلصة اللّحم «فياندوكس». وحين طرحت عليها سؤالاً عن الببّغاء، قالت لي: «بوسعك إن أردت أن تعلّمه جملة...»

Twitter: @ketab_n

فكّرت عندها، وفي نهاية الأمر لفظت بأوضح ما أمكنني: «**أبحث عن سيّارة فيات لونها أخضر مائيّ**». لم يتطلّب الأمر وقتاً طويلاً لتلقينه تلك الجملة. فهو ردّدها بطريقة أكثر اختزالاً وفعاليّة: «**سيّارة فيات لونها أخضر مائيّ**»، وكان صوته أكثر حدّة وسطوة من صوتي.

لم يعد مطعم «لا كلوزري دو باسي» موجوداً، وبدا لي في إحدى ليالي الصيف الماضي، فيما كنت أعبر صعوداً جادّة دوليسّير في سيّارة أجرة، أنّ مصرفاً حلّ محلّه. لكنّ الببّغاوات تعمّر. ربّما لا يزال ذاك الببّغاء بعد أكثر من عشرين عاماً، يردّد جملتي في حيّ آخر من باريس وسط ضجيج مقهى آخر، من غير أن يفهمها أحد أو أن يكترث لسماعها. وحدها الببّغاوات تبقى وفيّة للماضي.

*

كنت أطيل قدر الإمكان عشائي في مطعم «لا كلوزري دو باسي». قرابة الساعة العاشرة، تجلس صاحبة المكان مع أصدقائها حول طاولة في القعر، قرب البار وقفص بيبير الأصفر ويبدأون لعبة ورق. ذات مساء عرضت عليّ حتّى الانضمام إليهم. لكن تلك كانت الساعة التي يتحتّم عليّ

Twitter: @ketab_n

فيها مواصلة بحثي. فيات لونها أخضر مائيّ.

فكّرت أنّني إن ذرعت شوارع الحيّ قرابة منتصف الليل، فقد يتسنّى لي أن أصادف هذه السيّارة مركونة. لا بدّ لجاكلين بوسرجان من العودة إلى منزلها في تلك الساعة. كان لديّ انطباع بأنّه إن قُدّر لي العثور أخيراً على الفيات باللون الأخضر المائيّ، فسيكون ذلك خلال الليل وليس خلال النهار.

كان الصمت يسكن الشوارع، وكان البرد قارساً. بالطبع، كنت أخشى بين الحين والآخر أن تتوقّف بقربي سيّارة شرطة أثناء دوريّة وأن يطلبوا منّي أوراقي. لا شكّ أنّني كنت أبدو مثل متسكّع مشبوه، بسترتي القديمة المبقّعة بالدم والضمادة الظاهرة بجلاء من حذائي المشقوق. ثمّ أنّني لم أكن بلغت بعد سنّ الرشد، كانت بضعة أشهر لا تزال تفصلني من عامي الواحد والعشرين. لكن لحسن الحظّ، لم تتوقّف في تلك الليالي أيّ حافلة لنقل الموقوفين لاقتيادي إلى أقرب مركز للشرطة، أو حتّى إلى مباني شرطة الأحداث الضخمة المعتمة على ضفّة السين.

انطلقْتُ من ساحة ألبوني. لا أثر لفيات خضراء مائيّة

Twitter: @ketab_n

بين السيّارات المركونة هناك، على طول كلّ من الأرصفة. قلت لنفسي إنّها لا تجد أبداً مكاناً فارغاً قبالة منزلها، فتدور لوقت طويل في الحيّ بحثاً عن مكان تركن فيه سيّارتها. وهذا ما يمكن أن يقودها بعيداً. إلّا إن كانت تترك سيّارتها في مرآب. كان هناك مرآب قرب منزلها، على جادّة دوليسّير. دخلْتُ إليه في إحدى الليالي. كان رجل جالساً في القعر، في نوع من المكتب الزجاجيّ. لمحني قادماً من بعيد. حين دفعت الباب، نهض وشعرت أنّه متأهّب في موقف دفاعيّ. أسفت في تلك اللحظة لعدم ارتدائي معطفاً جديداً. ما إن بادرته بالكلام حتّى انفرجت أساريره. ثمّة سيّارة صدمتني الليلة الماضية وكنت شبه واثق من أنّ السائق يسكن في الحيّ. لم أتلقّ حتّى ذلك الحين أيّ إشارة منه، وكنت أودّ الاتّصال به. الواقع أنّها سائقة. أجل، ساحة ألبوني. فيات لونها أخضر مائيّ. لا بدّ أنّ المرأة تلك مصابة بجرح في وجهها، وسيّارة الفيات متضرّرة قليلاً.

استشار سجلّاً ضخماً كان مفتوحاً هناك، على مكتبه. كان يقلّب الصفحات ببطء، بعد وضع سبابته على شفته

Twitter: @ketab_n

السفلى، في إشارة غالباً ما كان والدي يقوم بها حين يتفحّص ملفّات غامضة في مقهى «كورونا» أو «روك أونيفير». «قلتَ فيات خضراء مائيّة، أليس كذلك؟» كان يضع سبابته في وسط صفحة ليشير لي إلى شيء ما، وأخذ قلبي يخفق بقوّة... رفع رأسه وحدّق بي برزانة طبيب يفحص مريضاً. «إنّها سيّارة شخص يدعى سوليار، قال. لديّ عنوانه.» «- هل يسكن في ساحة ألبوني؟» «- لا، أبداً». كان مقطّباً، وكأنّه متردّد في إعطائي العنوان. «قلتَ إنّها امرأة. هل أنت واثق من أنّها السيّارة ذاتها؟» عندها سردت له كلّ وقائع تلك الليلة، سيّارة شرطة النجدة التي كان سوليار ذاك معنا فيها، مستشفى أوتيل ديو، عيادة ميرابو، ثمّ سوليار من جديد في انتظاري في الردهة، عند خروجي من العيادة. لم أشأ أن أخبره عن لقائي الأخير في المقهى مع ذلك الرجل الذي تظاهر بأنّه لم يتعرّف إليّ.

«إنّه يسكن في الرقم 4، جادّة ألبير دو مان، قال لي. لكنّه ليس من زبائننا. كانت هذه أوّل مرّة يأتي فيها إلى هنا». سألته عن موقع جادّة ألبير دو مان. هناك، بمحاذاة حدائق التروكاديرو. قرب الأكواريوم؟ بعده بقليل. جادّة

Twitter: @ketab_n

تنحدر نزولاً نحو رصيف النهر. بدّلوا الزجاج الأماميّ وأحد الكشّافات، لكنّ شخصاً جاء لاستلام السيّارة قبل إنجاز تصليحها. سوليار نفسه؟ لم يكن بوسعه أن يجزم، فهو كان غائباً في ذلك اليوم، سوف يسأل شريكه. كان يسترق النظر بين الحين والآخر إلى حذائي المشقوق وضمادتي. «على أيّة حال، هل قدّمت شكوى؟» طرح عليّ هذا السؤال بنبرة لوم أقرب إلى المودّة، كنبرة الصيدليّ في اليوم السابق. شكوى ضدّ من؟ الشكوى الوحيدة التي كان يجدر بي تقديمها كانت ضدّي أنا نفسي. كنت حتّى ذلك الحين أعيش في فوضى. وهذا الحادث سوف يضع حدّاً نهائيّاً لكلّ تلك السنوات من الغموض والتردّد. حان الوقت لذلك. «ولا أثر لسيّدة سوليار؟ سألته. أو ربّما جاكلين بوسرجان؟» «- ليس في السجلّ، في مطلق الأحوال.» «- شقراء، على وجهها جروح؟ ألم تلمحها مرّة عابرة في الحيّ؟» رفع كتفيه. «أؤكّد لك أنّني في هذا المكتب على الدوام، إلّا حين أعود إلى منزلي في فانف. هل أنت واثق من أنّها كانت تقود بنفسها؟» كنت واثقاً من ذلك. بقينا لوقت طويل في تلك الليلة جنباً إلى جنب

Twitter: @ketab_n

على الكنبة، في ردهة الفندق، قبل أن يتقدّم المدعو سوليار صوبنا ونصعد في حافلة الشرطة. بوسعي الذهاب إلى الفندق في ساحة البيراميد للتحقّق من ذلك. لا بدّ أن يكون هناك شهود. لكنّني لم أكن بحاجة إلى شهود. يكفي أن أعثر على تلك المرأة حتّى أستوضح المسألة معها، هذا كلّ ما في الأمر.

«قم بجولة في جادّة ألبير دو مان، قال لي. إن أحضروا سيّارة الفيات من جديد، فسوف أبلّغك. أين يمكنني الاتّصال بك؟» أعطيته عنوان فندق فريمييه. فقد تبيّن لي أنّ ذلك الرجل لم يكن يضمر لي شرّاً.

كانت الساعة أوشكت على منتصف الليل. مشيت إلى حدائق التروكاديرو. سوليار. كنت أردّد لنفسي هذا الاسم... احتفظت من والدي بمفكّرة عناوين قديمة لا بدّ أنّها مخبّأة في علبة الكرتون الكحليّة. سوف ألقي نظرة على الحرف «س».

كنت أتبع الممرّ المؤدّي إلى الأكواريوم. أجل، كانت جادّة ألبير دو مان تنحدر بشكل طفيف صوب نهر السين، بمحاذاة حدائق التروكاديرو. الرقم 4 كان أحد

Twitter: @ketab_n

المبنيَين العاليين قبل رصيف النهر. كان يقع عند زاوية شارع ضيّق، والطابق الأخير منه كان له شرفة عريضة. لم تكن أيّ نافذة فيه مضاءة. بدا المبنى مهجوراً. بين الحين والآخر، تعبر سيّارة على الرصيف. اقتربت من الباب الزجاجيّ، لكنّني لم أجرؤ على الدخول. من المؤكّد أنّ البوّاب سوف يتّصل بالشرطة عند رؤية ملابسي وفي مثل هذه الساعة المتأخّرة. هل كان هناك بوّاب؟ وفي أيّ طابق يسكن سوليار ذاك؟ بقيت واقفاً على الرصيف، من جهة الحدائق، محدّقاً بواجهة المبنى من غير أن أحوّل نظري عنها. هنا، في أحد هذه الطوابق، سوف أعرف أمراً هامّاً عن حياتي. كان يبدو لي أنّني في ما بعد ظهيرة يوم من أيّام طفولتي، عند الخروج من الأكواريوم، مشيت عابراً هذا المنحدر بمحاذاة الحدائق. الرقم ٤، جادّة ألبير دو مان. رغم كلّ شيء، سوف أتصفّح مفكّرة والدي القديمة لأتثبّت ممّا إذا كان هذا العنوان وارداً في أيّ من صفحاتها، يسبقه اسم، سوليار أو غيره. ربّما تتضمّن إشارة إلى قرية فوسومبرون لا فوريه. لا بدّ أن أكشف في نهاية المطاف الصلة التي تربط هذين الموقعين. لا شكّ أنّني قمت

Twitter: @ketab_n

برحلات كثيرة بين فوسومبرون لا فوريه وباريس في سيّارة الفيات الخضراء المائيّة، أو في سيّارة أقدم كانت تقودها جاكلين بوسرجان تلك. كلّما تأمّلت الواجهة البيضاء، ازداد إحساسي بأنّني سبق أن رأيتها- إحساس خاطف مثل نُتَف حلم تفلت منّا وتتبدّد حين نستيقظ، أو انعكاس لنور القمر. ما كان ليمكنني أن أتصوّر، حين كنت في غرفتي عند بوّابة أورليان، أنّ هذا الحيّ وجادّة ألبير دو مان تلك سيكونان بالنسبة لي منطقة تجذبني إليها مثل مغناطيس. كنت حتّى ذلك الحين أبقى في الهوامش، عند ضواحي الحياة، في انتظار أمرٍ ما. ما زلت إلى اليوم أعود في أحلامي أحياناً إلى تلك الأحياء، أتيه بين كلّ تلك المجمّعات الضخمة من المباني عند أطراف باريس. أبحث عبثاً عن غرفتي القديمة، غرفة ما قبل الحادث.

مشيت حتّى زاوية رصيف النهر. لا أثر هناك أيضاً لأيّ سيّارة فيات خضراء مائيّة. درتُ حول الحيّ. ربّما كانت غائبة. كيف يمكن الحصول على رقم هاتف سوليار؟ على ما بدا لي في المقهى في اليوم السابق، لم يكن من النوع الذي يمكن أن يرد اسمه في الدليل.

Twitter: @ketab_n

*

كان الصيدليّ في شارع رينوار يرفق بي أحياناً ويغيّر لي ضمادتي. كان يطهّر الجرح بالمعقّم، ونصحني بالإحجام عن المشي كثيراً وباختيار حذاء لرجلي اليسرى أكثر ملاءمةً من ذلك الخفّ المشقوق. كنت أعِده في كلٍّ من زياراتي باتّباع نصائحه. لكنّني كنت مدركاً أنّني لن أبدّل حذائي قبل العثور على الفيات الخضراء المائيّة.

حاولت المشي أقلّ من الأيّام السابقة ولازمت غرفتي في فندق فريميه لساعات طويلة بعد الظهر. كنت أتأمّل في الماضي والحاضر. دوّنت أسماء السكّان في الرقم 4، جادّة ألبير دو مان الواردة في الدليل.

بوشي (ج.): باسي 13 51

شركة التروكاديرو للأموال والعقارات: باسي 48 00

ديتومب (ج.): باسي 03 97

دوبون (أ.): باسي 24 35

غودوين (السيّدة س.): باسي 41 48

غرونبرغ (أ.): باسي 05 00

ماكلاكلن (غ. ف.): باسي 04 35

Twitter: @ketab_n

لا ذكر لسوليار. اتّصلت بكلّ من هذه الأرقام طالباً التحدّث إلى السيّد سوليار والآنسة جاكلين بوسرجان، لكنّ هذين الاسمين لم يوحيا بشيء على ما يبدو لمحاوريّ. شركة التروكاديرو للأموال والعقارات لم تكن تجيب. ربّما هذا هو الرقم الصحيح.

وجدت فعلاً مفكّرة والدي موضّبة بين أوراقي في علبة الكرتون الكحليّة. كان نسيها في إحدى الليالي على طاولة مقهى، ودسستها في جيبي. لم يأتِ مرّة على ذكرها في لقاءاتنا التالية. الظاهر أنّه لم يكترث البتّة لفقدانها، أو أنّه لم يتصوّر أن أكون أنا من أخذ تلك المفكّرة. أعتقد أنّه في الأشهر الأخيرة قبل أن يتوارى في الضباب، من جهة مونروج، لم تعد كلّ هذه الأسماء ذات فائدة له. لا ذكر لاسم سوليار في قسم الحرف «س» ولا ذكر إطلاقاً لفوسومبرون لا فوريه بين العناوين.

كنت أتساءل في بعض الليالي إن كان لبحثي ذاك أيّ مغزى، ولماذا خضت فيه بالأساس. أكانت تلك سذاجة من جانبي؟ راودني منذ وقت مبكر جدّاً، ربّما حتّى قبل فترة المراهقة، الشعور بأنّني لا أتحذّر من أيّ شيء. أذكر

Twitter: @ketab_n

منشوراً كان يوزّعه في ما بعد ظهيرة أحد الأيّام في الحيّ اللاتينيّ رجل يرتدي معطفاً من الغبردين وله لحية رقيقة تطوّق وجهه. كان يتضمّن استبياناً لتحقيق حول الشبيبة. بدت لي الأسئلة غريبة: أيّ بنْية عائليّة عرفتَها (عرفتِها)؟ أجبت: لم أعرف أيّ بنية عائليّة. هل تحتفظ (تحتفظين) بصورة قويّة لوالدك أو والدتك؟ أجبت: ضبابيّة. هل تعتبر نفسك ابناً (بنتاً) صالحاً (صالحةً)؟ لم أكن يوماً ابناً. هل تسعى من خلال الدراسات التي تتابعها للاحتفاظ بتقدير والديك والتماثل لبيئتك الاجتماعيّة؟ لا دراسات. لا والدين. لا بيئة اجتماعيّة. هل تفضّل خوض ثورة أو تأمّل مشهد جميل؟ تأمّل مشهد جميل. ماذا تفضّل؟ عمق المعاناة أم خفّة السعادة؟ خفّة السعادة. هل تريد تغيير الحياة أم استعادة انسجام مفقود؟ استعادة انسجام مفقود. هاتان الكلمتان كانتا تجعلانني أسبح في الأحلام، لكن ماذا عساه يكون، الانسجام المفقود؟ كنت أتساءل في تلك الغرفة من فندق فريمييه إن لم أكن أسعى، على الرغم من العدم الذي يلفّ أصولي والفوضى التي تحكم طفولتي، لاكتشاف نقطة ثابتة، أمر يبعث الطمأنينة،

Twitter: @ketab_n

مشهد، يساعدني في هذا الظرف بالذات على تثبيت قدميّ والنهوض من جديد. ربّما هناك جزء كامل من حياتي لا أعرفه، قاع صلبة تحت الرمال المتحرّكة. وكنت أعوّل على سيّارة الفيات الخضراء المائيّة وعلى سائقتها لمساعدتي على العثور عليه.

*

كنت أجد صعوبة في النوم. خطر لي أن أطلب من الصيدليّ قارورة صغيرة من قوارير الأثير ذات اللون الأزرق الليليّ التي كنت أعرفها حقّ المعرفة. لكنّني تمالكت نفسي في الوقت المناسب. لم يكن ذلك وقت التخاذل. يجدر بي الحفاظ على صفائي الذهنيّ كاملاً. ما كنت نادماً عليه أكثر من سواه خلال ليالي الأرق تلك، كان أنّني تركت جميع كتبي في غرفتي في شارع فوا فيرت. لم يكن هناك مكتبات كثيرة في الحيّ. اضطررت للمشي حتّى ساحة ليتوال للعثور على واحدة. اشتريت فيها بضع روايات بوليسيّة وكتاباً قديماً مستعملاً أثار عنوانه فضولي: «الرّوائع السّماويّة». فوجئت كثيراً حين لاحظت أنّه لم يعد بمقدوري مطالعة الروايات البوليسيّة. لكن ما إن

Twitter: @ketab_n

فتحت «الرّوائع السّماويّة»، وعلى صفحة غلافه الداخليّة التوجيه التالي: «قراءات مسائيّة»، حتّى أدركت كم أنّ هذا المؤلَّف سيكون له وقعٌ كبير عليّ. السديم. درب التبّانة. عالم الكواكب والنجوم. المجرّات الشماليّة. دائرة الأبراج والعوالم النائية... مع تبحّري أكثر فأكثر في فصول الكتاب، لم أعد أدري حتّى لماذا كنت ممدّداً في ذلك السرير، في غرفة الفندق تلك. نسيت أين أنا، في أيّ بلد، في أيّ مدينة، ولم يعد لكلّ ذلك أيّة أهميّة. لم يكن هناك أيّ مخدّر، لا الأثير، لا المورفين ولا الأفيون، يمكن أن يعطيني ذلك الإحساس بالسكينة الذي كان يجتاحني شيئاً فشيئاً. كان يكفي أن أقلّب الصفحات. كان يجدر بأحد أن ينصحني منذ زمن بعيد بهذه «القراءات المسائيّة». لكان ذلك جنّبني الكثير من المعاناة غير المجدية ومن الليالي المضطربة. درب التبّانة. عالم الكواكب والنجوم. ها هو الأفق أخيراً يتّسع أمامي وينبسط إلى ما لا نهاية، وكان هناك عذوبة قصوى في رؤية كلّ تلك النجوم من بعيد أو حدسها، نجوم متبدّلة، زائلة، مطفأة أو مندثرة. كنت عدماً في ذلك المدى اللامتناهي، لكنّه بات بوسعي أخيراً أن أتنفّس.

Twitter: @ketab_n

هل كان ذلك مفعول قراءتي تلك؟ في الليل، حين كنت أتنزّه في الحيّ، كان لا يزال يخالجني إحساس بالاكتمال. انجلتْ كلّ شجوني. تخلّصت من قوقعةٍ كانت تخنقني. زال الألم في ساقي. الضمادة انفكّت وكانت تتدلّى من فوق حذائي. الجرح كان يندمل. والحيّ يتّخذ مظهراً مغايراً لمظهره حين انتقلت إليه في بادئ الأمر. لبضع ليالٍ، كانت السماء صافية لم أبصر من قبل هذا العدد من النجوم تلتمع فيها. أو أنّني لم أكن حتّى ذلك الحين أعير الأمر أيّ اهتمام. لكنّني قرأت منذ ذلك الحين «الرّوائع السّماويّة». كانت خطاي غالباً ما تعيدني من تلقاء نفسها إلى ساحة التروكاديرو. هنا على الأقلّ، يمكن تنشّق هواء العراء. بدت لي تلك المساحة مخترقة بجادّات كبرى يمكن الوصول إليها من نهر السين عبر حدائق وأدراج متتالية وممرّات أشبه ما تكون بدروب ريفيّة. نور المصابيح كان يشعّ بوهج متزايد. كنت أُفاجأ بعدم وجود سيّارات مركونة على طول الأرصفة. أجل، تلك الجادّات كانت كلّها مقفرة، وسيكون من السهل عليّ أن أرصد من مسافة بعيدة جدّاً سيّارة الفيات الخضراء المائيّة. ربّما كان

Twitter: @ketab_n

يحظر على السائقين منذ بضع ليالٍ أن يركنوا سيّاراتهم في الجوار. قد يكونون قرّروا تصنيف الحيّ اعتباراً من ذلك الحين في ما يعرف بـ «المنطقة الزرقاء»[1]. وكنت أنا المارّ الوحيد. هل فرضوا حظر تجوّل يمنع على الناس الخروج بعد الساعة الحادية عشرة مساءً؟ لكنّني لم أكن آبه، وكأنّني أحمل في جيب سترتي إذنَ مرور يضعني بمأمن من دوريّات الشرطة. ذات ليلة، لحقني كلب من حيّ آلْما إلى ساحة التروكاديرو. كان يشبه ذاك الكلب الذي دهسته سيّارة في طفولتي، اللون الأسود ذاته والنوع ذاته. كنت أمشي صعوداً على الرصيف الأيمن من الجادّة. بقي الكلب في البدء على مسافة عشرة أمتار خلفي، وأخذ يقترب تدريجيّاً. عندما وصلت إلى مستوى بوّابات حدائق غاليرا، كنّا نسير جنباً إلى جنب. لم أعد أدري أين قرأت -ربّما كانت تلك حاشية عند أسفل إحدى صفحات «الرّوائع السّماويّة»- أنّه يمكن في ساعات معيّنة من الليل أن ننزلق إلى عالم موازٍ: شقّة خالية لم نطفئ فيها الضوء، وحتّى طريق ضيّق

(1) هي الأماكن التي يُسمح فيها بتوقّف السيّارات مجّاناً لفترة محدودة، ساعة ونصف السّاعة في بعض المدن.

Twitter: @ketab_n

مسدود. هناك نعثر على أغراض أضعناها منذ زمن بعيد: جالبة حظّ، رسالة، شمسيّة، مفتاح، والقطط، الكلاب أو الأحصنة التي فقدناها على مرّ الحياة. خطر لي أنّ ذلك الكلب كان هو ذاته كلب شارع الدكتور كورزين.

كان له طوق جلديّ أحمر مع ميداليّة، وحين انحنيت صوبه، رأيت رقم هاتف محفوراً عليها. هذا ما يجعل من يعثر عليه يتردّد في حمله إلى زريبة الحيوانات الشاردة. وأنا، كنت أحمل على الدوام في جيب سترتي الداخليّة جواز سفري القديم المنتهية مدّته والذي زوّرت عليه تاريخ ولادتي حتّى أبدو أكبر سنّاً، وكأنّني بلغت الواحدة والعشرين، سنّ الرشد. لكنّني منذ بضع ليالٍ لم أعد أخشى دوريّات الشرطة. قراءة «الرّوائع السّماويّة» رفعت معنويّاتي فعلاً وصرت أنظر إلى الأمور بتجرّد كبير.

كان الكلب يتقدّمني. في البداية، التفتَ ليتثبّت من أنّني ألحق به، ثمّ صار يجري بوتيرة منتظمة. كان واثقاً من وجودي. كنت أسير بالوتيرة البطيئة ذاتها. لم يكن شيء يعكّر الصمت. بدا لي أنّ العشب كان ينبت بين بلاط الرصيف. لم يعد للوقت وجود. لا شكّ أنّ ذلك كان

Twitter: @ketab_n

«العَود الأبديّ» الذي كان بوفيار يتحدّث عنه. واجهات المباني، الأشجار، المصابيح المتلألئة، كلّها كانت تتّخذ عمقاً لم يسبق أن عرفته به من قبل.

تردّد الكلب للحظة حين خطوت على ساحة التروكاديرو. لكأنّه كان يريد أن يكمل في خطّ مستقيم. ثمّ تبعني في النهاية. بقيت لوقت طويل مستغرقاً في تأمّل الحدائق إلى الأسفل، الحوض الكبير الذي بدت مياهه مشعّة، وخلف السين، المباني الممتدّة على طول أرصفة النهر وحول ميدان شان دو مارس. فكّرت في والدي. تصوّرته هناك، في مكان ما، داخل غرفة، أو حتّى في مقهى، قبل قليل من إقفاله، جالساً وحيداً تحت أضواء النيون، يستشير ملفّاته. ربّما لا تزال لديّ فرصة للعثور عليه. فالزمن تلاشى، بما أنّ ذلك الكلب قدِمَ من أعماق الماضي، من شارع الدكتور كورزين. رأيته يبتعد عنّي، كأنّه لم يعد بوسعه البقاء لمزيد من الوقت برفقتي وأنّه سوف يتخلّف عن موعد. عندها، لحقت به. كان يجري بمحاذاة واجهة «متحف الإنسان» وانعطف في شارع فينوز. لم يسبق لي أن سلكت هذا الشارع من قبل. إن

Twitter: @ketab_n

كان ذلك الكلب يستدرجني إليه، فلم يكن ذلك من باب الصدفة. راودني إحساس ببلوغ الهدف وبالعودة إلى منطقة أليفة، رغم أنّ النوافذ كانت مطفأة وكنت أسير في ظلمة شبه كاملة. اقتربت من الكلب خشية أن يغيب عن نظري. كان الصمت يلفّنا وكنت أسمع وقع خطاي. كان الشارع ينعطف مشكّلاً زاوية شبه قائمة، وقلت لنفسي أنّه يؤدّي حتماً إلى مطعم «لا كلوزري دو باسّي»، حيث كان الببّغاء في تلك الساعة يردّد في قفصه الأصفر «فيات باللون الأخضر المائيّ»، هكذا من غير سبب، فيما صاحبة المكان تلعب الورق مع أصدقائها. بعد الزاوية، لافتة مطفأة. مطعم، أو بالأحرى حانة، مغلقة. كان ذلك يوم أحد. يا له من موقع غريب لحانة كانت واجهتها من الخشب الفاتح ولافتتها ستجدان مكاناً أنسب لهما على الشانزليزيه أو في ساحة بيغال...

توقّفت للحظة وحاولت قراءة ما كان مكتوباً على اللافتة، فوق باب المدخل: «فول دو نُوِي[1]». ثمّ قلّبت النظر بحثاً عن الكلب، حدّقت أمامي. لم أعد أراه.

(1) «فول دو نوي» تعني بالعربيّة «طيران ليليّ».

Twitter: @ketab_n

أسرعت الخطى لألحق به. لكن لم يكن هناك أثر له. أخذت أركض ووصلت إلى تقاطع جادّة دوليسّير. كانت المصابيح تلتمع بوهجٍ جعل عينيّ تطرفان. لا كلب في الأفق، ولا على رصيف الجادّة المنحدر نزولاً، ولا في الجهة المقابلة، ولا أمامي صوب محطّة المترو الصغيرة والأدراج التي تنزل حتّى نهر السين. كان النور ناصعاً، نور ليل قطبيّ. كنت سأبصر ذلك الكلب الأسود من بعيد. لكنّه اختفى. راودني إحساس بالفراغ، إحساس أليف نسيته منذ بضعة أيّام بفضل قراءة «الرّوائع السّماويّة» التي أحلّت في نفسي الأمان. أسفت لعدم حفظ رقم الهاتف الذي كان يحمله على طوقه.

*

كان نومي مضطرباً في تلك الليلة. حلمت بذلك الكلب الذي ظهر من الماضي ليتوارى من جديد. في الصباح، كانت معنويّاتي عالية وكنت واثقاً من أنّه لم يعد أيّ منّا، سواء أهو أو أنا، معرّضاً لأيّ خطر. لم يعد من الممكن لأيّ سيّارة أن تصدمنا بعد ذلك اليوم.

كانت الساعة تقارب السابعة. وجدت أحد المقاهي

Twitter: @ketab_n

على رصيف النهر مفتوحاً، ذلك المقهى حيث التقيت بسوليار. هذه المرّة، كنت وضعت في جيب سترتي مفكّرة والدي القديمة التي تحوي عناوينه. كنت أحتفظ على الدوام بغرض ما في جيوبي: كتاب «الرّوائع السّماويّة» أو خارطة ميشلان لمقاطعة لوار إيه شير.

جلست إلى طاولة، بالقرب من الواجهة الزجاجيّة. هناك، في الطرف المقابل من الجسر، كانت قطارات المترو تتوارى الواحد تلو الآخر. تصفّحت المفكّرة. رحت أقرأ العناوين المكتوبة بحبر من ألوان مختلفة، أزرق، أسود، بنفسجيّ. الأسماء بالحبر البنفجسيّ بدت لي هي الأقدم وكانت مكتوبة بخطّ أكثر اجتهاداً من سواها. بعضها شُطِب. لاحظت بذهول أنّ عدداً كبيراً من الأسماء كان مرفقاً بعناوين في شوارع الحيّ حيث كنت. احتفظت بتلك المفكّرة وأخذت أنسخ عنها:

إيفان شابوشنيكوف، 1، جادّة بول دومير، كليبير 73 46

غي دو فوازان، 23، شارع رينوار، جاسمان 33 18

نيك دو مورغولي، 14، ساحة ألبوني، تروكاديرو 65 81

تودي فيرنر، 28، شارع شيفير، باسي 90 90

Twitter: @ketab_n

ماري تشيرنيشيف، 30، رصيف باسي، جاسمان 64 76
مرّة جديدة، 30، رصيف باسي: أليكسي موتافولو، أوتوي 70 66...

قصدت بعد الظهر عدداً من تلك العناوين، من باب الفضول. دائماً الواجهات الفاتحة الألوان ذاتها، مع واجهات زجاجيّة وشرفات فسيحة، كما في الرقم 4 من جادّة ألبير دو مان. أفترض أنّه كان يقال عن تلك المباني إنّها توفّر «سبل الراحة الحديثة» وتتّسم ببعض الخصائص: تدفئة أرضيّة، لا أرضيّة خشبيّة بل بلاط من الرخام، أبواب جرّارة، والانطباع بأنكّ على متن باخرة ثابتة في عرض البحر. والعدم خلف كلّ هذا الترف الظاهر بشكل فاضح. كنت أعلم أنّ والدي غالباً ما سكن منذ شبابه في مبانٍ من هذا الصنف وأنّه لم يكن يدفع الإيجار. في الشتاء، كانت الكهرباء مقطوعة في الغرف الفارغة. كان من أولئك الركّاب الذين يتبدّلون بوتيرة سريعة، من غير أن يستقرّوا في أيّ مكان، ولا أن يتركوا أثراً خلفهم. أجل، صنف من الرجال يصعب لاحقاً العثور على دليل يثبت وجودهم. لا جدوى في جمع تفاصيل محدّدة: أرقام هاتف،

Twitter: @ketab_n

أحرف أبجديّة لمختلف السلالم في باحات المباني. هذا ما جعلني أشعر الليلة الماضية بإحباط طفيف، في جادّة ألبير دو مان. لو اجتزت البوّابة العريضة، لما كانت أفضت بي إلى مكان. هذا ما أوقفني، وليس الخوف من توقيفي مثل متسكّع مشبوه. كنت أواصل عمليّة بحث عبر شوارع كلّ ما فيها مجرّد واجهة خادعة. بدت لي مهمّتي عبثيّة، مثل مهمّة مسّاح يقيم ترسيماً جغرافيّاً على فراغ. لكنّني قلت لنفسي: هل أنّ الأمر يفوق طاقتك حقّاً، أن تعثر على امرأة تدعى جاكلين بوسرجان؟

Twitter: @ketab_n

أذكر أنّني في تلك الليلة، قطعت قراءتي لكتاب «الرّوائع السّماويّة» في منتصف الفصل عن المجرّات الجنوبيّة. خرجت من الفندق من غير أن أودع مفتاح غرفتي في مكتب الاستقبال الفارغ. أردت شراء علبة سجائر. محلّ التبغ الوحيد الذي كان لا يزال مفتوحاً كان على ساحة التروكاديرو.

صعدت الأدراج من رصيف النهر، وبعدما تجاوزت محطّة القطارات الصغيرة، خُيّل لي أنّني سمعت ببّغاء «لا كلوزري» يردّد بصوته المبحوح: «فيات باللون الأخضر المائيّ، فيات باللون الأخضر المائيّ». كان الضوء لا يزال مشتعلاً خلف الزجاج. إنهم يواصلون لعبة الورق. فوجئت بالهواء دافئاً لليلة شتائيّة. كان الثلج تساقط

Twitter: @ketab_n

في الأيّام السابقة، وبقيت منه بقعٌ في الحدائق الممتدّة في الأسفل، قبل «متحف الإنسان».

فيما كنت أشتري السجائر في صالة المقهى، جلسَتْ مجموعة من السيّاح إلى طاولات السطيحة. كنت أسمع قهقهاتهم. دهشت لرؤية تلك الطاولات المنصوبة في الخارج، وأحسست لوهلة بما يشبه الدوار. تساءلت إن لم تكن الفصول تختلط عليّ. كلّا، فأشجار الساحة تساقطت أوراقها فعلاً، ولا بدّ أنّ الصيف لن يعود قبل وقت طويل. مضت أشهر وأشهر وأنا أمشي في البرد والضباب، حتّى أنّي لم أعد أدري إن كان الغشاء سينجلي ذات يوم. هل أنّني حقّاً أطلب المستحيل من الحياة، إن رغبت في الجلوس في الشمس واحتساء كوب من شراب البرتقال بالقشّة؟

مكثت لبعض الوقت أتنشّق هواء العراء في الساحة. كنت أفكّر في الكلب الأسود الذي جاء إليّ الليلة الماضية، ذلك الكلب القادم من بعيد بعيد، عبر كلّ تلك السنوات... تلك حماقةٌ فعلاً أنّني لم أحفظ رقم الهاتف المدوّن على طوقه...

Twitter: @ketab_n

سلكت شارع فينوز، كما في الليلة الماضية. كانت العتمة لا تزال تخيّم فيه. ربّما كان هناك عطل في التيّار الكهربائي. رأيت لافتة الحانة أو المطعم تلتمع، لكنّ نورها كان خافتاً فلا يكاد يمكن تمييز كتلة داكنة، سيّارة مركونة مباشرةً قبل أن ينعطف الشارع. حين وصلت إلى هناك، انخطفت أنفاسي. رأيت الفيات الخضراء المائيّة. لم تكن تلك مفاجأة حقيقيّة، فأنا لم أفقد يوماً الأمل في العثور عليها. كان يجدر التسلّح بالصبر، هذا كلّ ما في الأمر، وكنت أشعر بأنّني أمتلك من الصبر مخزوناً لا ينضب. لا همّ إن أمطرت أو أثلجت، كنت على استعداد للانتظار ساعات مديدة في الشارع.

كان واقي الصدمات الأمامي وأحد أجنحة العجلات متضرّرَين. لا شكّ أنّ هناك في باريس الكثير من سيّارات الفيات الخضراء المائيّة، لكنّ تلك السيّارة بالذات كانت تحمل فعلاً آثار الحادث. أخرجت من جيب سترتي جواز سفري، وفيه تقبع مطويّةً الورقة التي جعلني سوليار أوقّع عليها. أجل، كان رقم التسجيل ذاته.

نظرت إلى الداخل. حقيبة سفر على المقعد الخلفيّ. كان

Twitter: @ketab_n

بوسعي ترك كلمة محشورة بين الزجاج الأماميّ والمسّاحة، أدوّن عليها اسمي وعنوان فندق فريميه. لكنّني أردت التثبّت من الأمر على الفور. فدفعت الباب الخشبيّ الفاتح اللّون ودخلت.

كان النور ينسكب من مصباح جداريّ خلف البار، تاركاً الطاولات القليلة المصفوفة من الجانبين، بمحاذاة الجدارين، غارقة في العتمة. رغم ذلك، أرى هذه الجدران بوضوحٍ في ذكراي، إنّها مكسوّة بمخمل أحمر بالٍ وممزّق في بعضِ المواقع، وكأنّ ذلك المكان شهد حقبة مجيدة قبل وقت طويل، لكن لم يعد أحد يأتي إليه منذ ذلك الحين. باستثنائي أنا. ظننت لوهلة أنّني دخلت بعد انقضاء ساعة الإغلاق بكثير. كانت امرأة جالسة إلى البار، ترتدي معطفاً بنيّاً داكناً. وكان شاب ذو قامة وسحنة تذكّران براكبي خيول السباق، يزيل ما تبقّى على الطاولات. نظر إليّ:

«هل يمكنني مساعدتك؟»

كانت المسألة أطول من أن أشرحها له. مشيت نحو البار وبدل أن أجلس على أحد المقاعد، توقّفت خلفها.

Twitter: @ketab_n

وضعت يدي على كتفها. التفتَت بجفول. حدّقَت بي بنظرة استغراب. كان خدش كبير يعترض جبينها، فوق الحاجبين مباشرة.

«هل أنت جاكلين بوسرجان؟»

فوجئت بالصوت اللّامبالي الذي طرحت به السؤال، حتّى أنّه بدا لي أنّ شخصاً آخر تكفّل بالأمر عنّي. كانت تحدّق بي بصمت. خفضت عينيها. توقّف نظرها عند البقعة على سترتي، ثمّ انحدر إلى حذائي والضمادة الظاهرة منه.

«سبق أن التقينا في ساحة البيراميد...»

بدا لي صوتي أكثر وضوحاً ولامبالاة. كنت واقفاً خلفها.

«أجل... أجل... أذكر جيّداً... ساحة البيراميد...»

ومن غير أن تحيد بنظرها عنّي، كانت تبتسم لي ابتسامة فيها قليل من السخرية، الابتسامة ذاتها - على ما بدا لي - كالليلة الماضية، في حافلة الموقوفين.

«بوسعنا الجلوس...»

كانت تشير لي إلى الطاولة الأقرب إلى البار والتي كانت

Twitter: @ketab_n

لا تزال مغطّاة بمفرش أبيض. جلسنا متقابلَين. وضعت كوبها على السّماط. تساءلْتُ أيّ نوع من المشروب فيه.

«يجدر بك أن تشرب شيئاً، قالت لي. منشّط ربّما... تبدو شاحباً للغاية...»

لفظت هذه الجملة بمنتهى الجدّ، لا بل حتّى بما يشبه رصانة حنونة لم يبادرني بها أيّ كان حتّى ذلك الحين. شعرت بالإحراج.

«تناول كأساً من المارغاريتا، مثلي...»

أحضر لي راكب خيل السباق كأس مارغاريتا، ثمّ توارى من باب زجاجيّ خلف البار.

«لم أكن على علم بأنّك خرجت من العيادة، قالت لي. كنت غائبة عن باريس لبضعة أسابيع... كنت أنوي الاستعلام عنك...»

يبدو لي بعد انقضاء العشرات والعشرات من السنين تلك، أنّ المكان الذي كنّا جالسين فيه متقابلَين كان غارقاً في البداية في عتمة حالكة. كنّا في الظلمة كما في عيادة طبيب عيون يضع أمام أعيننا عدسات مختلفة الدرجات إلى أن يصبح بوسعنا أخيراً قراءة الأحرف أمامنا على

Twitter: @ketab_n

اللوح الضوئيّ.

«كان يجدر بك البقاء لوقت أطول في العيادة... هل هربت منها؟»

ابتسمَت من جديد. لوقت أطول؟ لم أكن أفهم. الأحرف على الشاشة لا تزال مشوّشة كثيراً.

«قيل لي أن أرحل، أجبتها. قدِمَ سيّد يدعى سوليار لاصطحابي».

بدت مندهشة. رفعت كتفيها.

«لم يفاتحني بالأمر... أعتقد أنّه كان خائفاً منك».

خائف منّي؟ ما كان ليخطر لي يوماً أنّني من الممكن أن أخيف أيّاً كان.

«بدوتَ له غريب الأطوار بعض الشيء... ليس معتاداً على أشخاص مثلك...»

بدت مرتبكة. لم أجرؤ على الاستفهام منها عمّا كان سوليار ذاك يراه غريباً فيّ بالضبط.

«جئت لرؤيتك مرّتين أو ثلاث مرّات في العيادة... لكن للأسف، كان ذلك يصادف دائماً في وقت تكون نائماً...»

Twitter: @ketab_n

لم يبلّغني أحد بتلك الزيارات. انتابني الشكّ فجأة.

«هل بقيتُ طويلاً في تلك العيادة؟

- حوالى عشرة أيّام. السيّد سوليار هو الذي خطرت له فكرة نقلك إلى هناك. ما كانوا ليستطيعوا الاحتفاظ بك في مستشفى أوتيل ديو، في الوضع الذي كنت فيه.

- إلى هذا الحدّ؟

- كانوا يعتقدون أنّك تناولت موادّ سامّة».

لفظت الكلمتين الأخيرتين بكثير من الحرص. أعتقد أنّني لم أسمع أحداً من قبل يكلّمني بنبرة هادئة إلى هذا الحدّ، وبصوت بمثل هذه العذوبة. الاستماع إليها كان يبعث فيّ السكينة تماماً مثل قراءة «الرّوائع السّماويّة». لم أكن أحوّل نظري عن الخدش الكبير الذي يعترض جبينها، فوق الحاجبين بقليل. عيناها الصافيتان، شعرها الكستنائيّ المسترسل فوق كتفيها، ياقة معطفها المرفوعة... في تلك الساعة المتأخّرة وفي العتمة المحيطة بنا، وجدتها مثلما كانت تماماً في حافلة الشرطة، في تلك الليلة.

لامست بسبابتها الخدش فوق حاجبيها، وعادت إليها

Twitter: @ketab_n

من جديد ابتسامتها الساخرة.

«كان ذلك عنيفاً بعض الشيء بالنسبة للقاء أوّل»، قالت لي.

كانت تحدّق في عينيّ مباشرة، بصمت، كأنّها تريد سبْر أفكاري - وذلك التركيز، لم أكن صادفته من قبل إطلاقاً لدى أيّ كان.

«يبدو لي أنّك تعمّدت العبور في الوقت غير المناسب في ساحة البيراميد...»

لم أكن أوافقها الرأي. لطالما قاومت الإحساس بالدوار. ما كنت سأستطيع أبداً الاندفاع في الفراغ من أعلى جسر أو من نافذة. أو حتّى تحت عجلات سيّارة، مثلما كانت تعتقد على ما يبدو. الحياة كانت تبقى على الدوام في اللحظة الأخيرة هي الأقوى بنظري.

«لا أعتقد أنّك كنت في وضعك الطبيعيّ...»

ألقت نظرة من جديد إلى سترتي وحذائي المشقوق في رجلي اليسرى. كنت أعدت لفّ الضمادة كيفما تيسّر لي، لكن رغم ذلك لا بدّ أنّ مظهري لم يكن جذّاباً جدّاً. اعتذرْتُ عن حضوري بالحالة التي كنت فيها. أجل،

Twitter: @ketab_n

كنت متلهّفاً لاستعادة مظهر بشريّ.

قالت لي خافضةً صوتها:

«عليك بكلّ بساطة أن تبدّل سترتك. وربّما أيضاً حذاءك».

كنت أشعر بارتياح متزايد. اعترفت لها بأنّني حاولت طوال الأسابيع الماضية العثور عليها. لم يكن الأمر سهلاً مع اسم شارع بدون الرقم. عندها، بحثْتُ في الجوار، في أنحاء الحيّ، عن سيّارتها الفيات الخضراء المائيّة.

«الخضراء المائيّة؟»

بـدت وكأنّها تسـتغرب هذه الصفة، لكنّها كانت مدرجة حرفيّاً في المحضر الذي جعلني سوليار أوقّع عليه. محضر؟ لم تكن على علم بالأمر. كنت لا أزال أحتفظ به في جيب سترتي الداخليّة، فناولتها إيّاه. قرأته عاقدةً حاجبيها.

«هذا لا يدهشني... لطالما كان شديد الرّيبة...

- أعطاني أيضاً مبلغاً من المال...

- إنّه رجل سخيّ»، أجابت.

كان بودّي أن أعرف بالضبط العلاقة التي تربطها

Twitter: @ketab_n

بسوليار ذاك.

«هل تسكنين في ساحة ألبوني؟

- لا، إنّه عنوان أحد مكاتب السيّد سوليار».

كانت في كلّ مرّة تلفظ هذا الاسم بقدر من الاحترام.

«وجادّة ألبير دو مان؟»

كنت أَشبَهَ بشرطيّ يباغت مشتبَهاً به بسؤال لم يكن يتوقّعه من أجل ضعضعته، وكان الأمر مخزياً.

«إنّها إحدى شقق السيّد سوليار».

لم ترتبك على الإطلاق.

«كيف عرفت هذا العنوان؟»

رويت لها أنّني التقيت بسوليار ذاك قبل أيّام في مقهى، وأنّه ادّعى أنّه لا يعرفني.

«أتعلم، إنّه شديد الريبة... يعتقد على الدوام أنّ الناس ناقمون عليه... لديه الكثير من المحامين...

- هل هو ربّ عملك؟»

ندمتُ على هذا السؤال حالاً.

«أعمل لديه منذ سنتين».

أجابت بصوت هادئ، كأنّ الأمر اعتياديّ تماماً. وهو

Twitter: @ketab_n

كان كذلك بالتأكيد. لِمَ البحث عن سرّ حيث لا أسرار إطلاقاً؟

«بالمناسبة، في تلك الليلة، كنت على موعد مع السيّد سوليار في ساحة البيراميد، في ردهة فندق ريجينا... ثمّ في لحظة وصولي، حصل لنا... الحادث...»

تردّدتْ في اختيار الكلمة. كانت تنظر إلى يدي اليسرى. حين صدمتني السيّارة، خدشت ظهر يدي. لكنّ الجرح التأم تقريباً. لم أضع له أيّ ضمادة.

«أفهم من كلامكِ إذاً أنّ السيّد سوليار وصل في الوقت المناسب؟»

كان يمشي صوبنا في تلك الليلة بخطى بطيئة، مرتدياً معطفه القاتم. تساءلت حتّى إن لم تكن هناك سيجارة عند طرف شفتيه. وتلك الفتاة كانت على موعد معه في ردهة الفندق... أنا أيضاً كانت لي مواعيد مع والدي في ردهات الفنادق تلك المتشابهة جميعها، حيث الرخام والثرايا والتلبيسات الخشبيّة والكنبات، كلّها زائفة رخيصة. نُلفينا فيها في موقع ضعف، تماماً كما في قاعة الانتظار في محطّة بين قطارين، أو في مركز شرطة قبل الاستجواب.

Twitter: @ketab_n

«يبدو أنّه ليس ملاكاً، قلت لها.

- من؟

- سوليار».

بدت لأوّل مرّة محرجة حقّاً.

«ما هي مهنته؟

- أعمال».

أحنت رأسها كأنّها تخشى أن يصدمني هذا الجواب.

«وأنتِ سكرتيرته؟

- يمكنك قول ذلك... لكن بنصف دوام بالأحرى...»

هنا، تحت نور المصباح الجداريّ، بدت لي أصغر سنّاً منها في سيّارة الشرطة. لعلّ معطف الفرو هو الذي كان يجعلها تبدو في تلك الليلة أكبر من عمرها. وفي مطلق الأحوال، لم أكن بكامل وعيي بعد الصدمة. ظننت في تلك الليلة أنّها شقراء.

«أليس العمل الذي تزاولينه معقّداً كثيراً؟»

كنت أريد حقّاً معرفة كلّ شيء عنها. كان الوقت يداهم. في مثل تلك الساعة، ربّما كانوا على وشك إغلاق المطعم.

Twitter: @ketab_n

«حين وصلت إلى باريس، درست التمريض»، روت لي. كانت تتكلّم بشكل متسارع وكأنّها متلهّفة لشرح وضعها لي. «ثمّ عملت... ممرّضة منزليّة... التقيت بالسيّد سوليار...»

لم أعد أستمع إليها. سألتها عن عمرها. ستّ وعشرون سنة. كانت تكبرني إذاً ببضع سنوات. لكن من المستبعد أن تكون المرأة ذاتها من فوسومبرون لا فوريه. كنت أحاول أن أستذكر وجه تلك المرأة أو تلك الفتاة حين صعدتْ في الشاحنة الصغيرة وأمسكت بيدي.

«حصل لي في طفولتي حادث مماثل لحادث الليلة الماضية. عند الخروج من مدرسة...»

وكلّما مضيت في سرد القصّة لها، رحت أنا أيضاً أتحدّث بسرعة متزايدة، وراحت الكلمات تتدافع. كنّا شخصين جُمعا معاً لبضع دقائق في قاعة الزيارات داخل سجن ولن يكفيهما الوقت ليتفاتحا بكلّ ما لديهما.

«ظننت أنّك كنت الفتاة في الشاحنة الصغيرة...»

انفجرت بالضحك.

«لكنّ هذا غير ممكن... كان عمري في تلك الفترة

Twitter: @ketab_n

اثنتي عشرة سنة...»

كان النسيان والمجهول يبتلعان إلى الأبد محطّة من حياتي، وجه شخص أحبّني على الأرجح، بيتاً.

«مكان يدعى فوسومبرون لا فوريه... دكتور ديفوار...»

أعتقد أنّني قلت ذلك بصوت منخفض، مكلّماً نفسي.

«أعرف هذا الاسم، قالت. هذا في سولونيه. ولدت في المنطقة».

أخرجْتُ من جيب سترتي خارطة ميشلان لمقاطعة لوار إيه شير التي كنت أحتفظ بها منذ بضعة أيّام. فرشتها على الطاولة. بدت قلقة.

«أين ولدتِ؟ سألتها.

- في فيرسان».

انحنيت فوق الخارطة. لم يكن ضوء المصباح الجداريّ كافياً لأتمكّن من قراءة جميع أسماء القرى تلك المكتوبة بخطّ صغير جدّاً.

أحنت رأسها هي أيضاً. كان جبينانا يكادان يتلامسان.

Twitter: @ketab_n

«حاول العثور على بلْوا، قالت لي. إلى اليمين قليلاً، لديك شامبور. إلى الأسفل، إنّها غابة بولونيا. وبراسيو... وإلى اليمين، فيرسان...»

كان من السهل التوجّه على الخارطة بفضل بقعة الغابة الخضراء. ها هي فيرسان، وجدتها.

«تعتقدين أنّ هذا المكان بعيد عن فوسومبرون؟

- حوالى عشرين كيلومتراً...»

كان يجدر بي في أوّل مرّة عثرت فيها على الموقع على الخارطة أن أضع خطّاً بالحبر الأحمر تحت اسم فوسومبرون لا فوريه. ها أنّني أضعته.

«إنّه على الطريق إلى ميلانسي...»، قالت لي.

جعلت أبحث عن طريق ميلانسي. بات بوسعي أخيراً قراءة كلّ أسماء القرى: فونتين أون سولونيه، مونجيرون، مارشوفال...

«إن كان ذلك يهمّك، بوسعي في أحد الأيّام اصطحابك في جولة على المنطقة»، قالت وهي تحدّق بي بنظرة حائرة.

انحنيت من جديد فوق الخارطة.

«لا بدّ من العثور على الطريق من فيرسان إلى

Twitter: @ketab_n

فوسومبرون».

غصت من جديد في طرقات المقاطعة، ورحت أعبر قرى متنقّلاً بينها بشكل عشوائيّ: لو بليسّيس، تريفونتين، بوازارديار، لا فيورن... وعند نهاية درب صغير متعرّج، قرأت: فوسومبرون لا فوريه.

«ما رأيكِ لو نذهب إلى هناك الليلة؟»

فكّرت للحظة، كأنّ اقتراحي بدا لها طبيعيّاً.

«لا، ليس الليلة، إنّني متعبة جدّاً...»

قلت لها إنّني كنت أمزح، لكنّني لم أكن واثقاً من ذلك. لم يكن بوسعي تحويل نظري عن أسماء كلّ هذه الضيَع والغابات والبحيرات. وددت لو أذوب في المشهد. كان ينتابني منذ تلك الفترة شعور بأنّ رجلاً من دون مشهد هو رجل معدم. أشبه بكسيح. أدركت ذلك منذ الصغر، في باريس، حين قضى كلبي ولم أدرِ أين أدفنه. لا مرج على الإطلاق. لا قرية. لا أرض. ولا حتّى حديقة. طويت الخارطة من جديد ووضعتها في جيبي.

«هل تقيمين مع سوليار؟

- لا، على الإطلاق. أهتمّ فقط بمكاتبه وشقّته حين

Twitter: @ketab_n

يكون خارج باريس. إنّه يسافر كثيراً بسبب أعماله...»

غريب، والدي أيضاً كان يسافر كثيراً في سياق أعماله، وبالرغم من كلّ مواعيدي معه في ردهات فنادق ومقاهٍ كانت تزداد ابتعاداً صوب الأطراف، لم أفهم يوماً طبيعة تلك الأعمال. أكانت هي ذاتها الأعمال التي يزاولها سوليار؟

«هل تأتين كثيراً إلى هنا؟ سألتها.

- لا... ليس كثيراً... إنّه المكان الوحيد في الحيّ الذي يبقى مفتوحاً حتّى وقت متأخّر جدّاً...»

أشرت لها إلى عدم وجود الكثير من الزبائن، لكنّها شرحت لي أنّهم يأتون لاحقاً، في وقت متأخّر أكثر من الليل. زبائن غريبو الأطوار، قالت. رغم ذلك، يبدو لي المكان كما أذكره مهجوراً. يُخيّل لي حتّى أنّنا تسلّلنا أنا وهي إلى الداخل عنوة في تلك الليلة. إنّنا جالسان هنا، متقابلين، وأسمع إحدى تلك النغمات المكتومة، نغمات ما بعد ساعة حظر التجوّل، التي نرقص عليها ونعيش خلسةً لحظات عابرة من السعادة.

Twitter: @ketab_n

«ألا تعتقد أنّه بعد عنف لقائنا الأوّل، يجدر بنا التعارف بشكل أفضل؟»

قالت هذه الجملة بصوت ناعم عذب، لكن بنبرة حازمة ونطق واضح. كنت قرأت في مكان ما أنّ سكّان تورين هم الذين يتكلّمون اللغة الفرنسيّة الأكثر نقاوة. لكن بعد سماعها تتكلّم، أخذت أتساءل إن لم يكن ذلك بالاحرى في سولونيه، من جانب فيرسان وفوسومبرون لا فوريه. وضعَتْ يدها على يدي، يدي اليسرى التي كان الجرح على ظهرها يلتئم بشكل تامّ من غير أن أضطرّ إلى تضميده.

*

في الشارع، كان وشاح قد انقشع عن المشهد. كان هيكل السيّارة يلتمع في نور القمر. تساءلت إن لم يكن ذلك سراباً، أو مفعول الكحول التي شربتها. ربّتّ على الهيكل، على مستوى غطاء المحرّك، لأتثبّت من أنّني لم أكن أحلم.

«لا بدّ لي من إصلاح كلّ ذلك في أحد الأيّام»، قالت لي وهي تشير إلى واقي الصدمات وجناح العجلة المتضرّرَين.

Twitter: @ketab_n

اعترفت لها بأنّني أمسكت بالخيط للوصول إلى سيّارتها في مرآب.

«كلّفت نفسك الكثير من العناء سديً، قالت لي. كانت مركونة منذ ثلاثة أسابيع أمام منزلي... أسكن في الرقم 2 من ساحة ليون غيّو، في الدائرة الخامسة عشرة...»

لم نكن إذاً نسكن متباعدين جدّاً. بوّابة أورليان. بوّابة فانْف. كان بالإمكان لو حالفنا الحظّ قليلاً، أن نلتقي هناك، في تلك المنطقة الخلفيّة. لكان ذلك سهّل الأمور. كنّا كلانا ننتمي إلى العالم ذاته.

جلست على غطاء المحرّك.

«والآن، إن كنتِ عائدة إلى الدائرة الخامسة عشرة، سوف أكون ممتنّاً لك لو تقلّينني إلى منزلي...»

لكنّ هذا لم يكن ممكناً. قالت لي إنّها في تلك الليلة عليها أن تبيت في شقّة سوليار، في جادّة ألبير دو مان، وأن تبقى فيها لبعض الوقت حتّى لا تبقى الشقّة خالية في غيابه. أما هو، سوليار، فذهب في رحلة عمل إلى جنيف ومدريد.

«إذاً إن صحّ ظنّي، فأنت تعملين حارسة وناطوراً ليليّاً؟

Twitter: @ketab_n

- بوسعك قول ذلك إن أردت».

فتحَت باب السيّارة الايمن حتّى أدخل. بعد كلّ تلك الأيّام وكلّ تلك الليالي التي قضيتها هائماً في الحيّ، بدا لي ذلك طبيعيّاً. لا بل كنت واثقاً من أنّني سبق أن عشت هذه اللحظة في أحلامي.

خيّم البرد فجأة، برد جافّ أضفى وهجاً وصفاءً إلى كلّ ما كان يحيط بنا: نور المصابيح الناصع، إشارات السير، واجهات المباني الجديدة. كان يُخيّل لي أنّني أسمع وسط الصمت وقع خطى شخص يقترب منّا بمشية ثابتة.

شدّت على معصمي، كما في تلك الليلة، في حافلة الشرطة.

«هل أنت أفضل حالاً؟» سألتني.

كانت ساحة تروكاديرو شاسعة ومقفرة أكثر من العادة في نور القمر. بدا لي أنّنا لن ننتهي من عبورها، وهذا البطء أشاع فيّ إحساساً بالارتياح. كنت واثقاً من أنّني إن نظرت إلى النوافذ المعتمة، فسوف أبصر من خلال ظلمة الشقق، لكأنّني قادر على التقاط الأشعّة تحت الحمراء وفوق البنفسجيّة. لكنّني لم أكن بحاجة إلى كلّ هذا العناء.

Twitter: @ketab_n

يكفي أن أستسلم وأنزلق على المنحدر الذي ارتقيته الليلة الماضية مع الكلب.

«أنا أيضا حاولت العثور عليكَ، قالت لي، لكنّهم في العيادة لم يكن لديهم عنوانك... باريس شاسعة... ينبغي الاحتراس... أشخاص مثلنا يتيهون في نهاية الأمر...»

بعد قصر شايو، انعطفَتْ يميناً وتقدّمنا بمحاذاة مبانٍ ضخمة بدت وكأنّها مهجورة. لم أعد أدري في أيّ مدينة كنت، مدينة هجرها سكّانها للتوّ، لكنّ ذلك لم يعد له أيّ أهميّة. لم أعد وحيداً في هذا العالم. كان المنحدر أكثر وعورة وكان ينزل حتّى السين. عرفت جادّة ألبير دو مان، الحديقة المحيطة بالأكواريوم وواجهة المبنى البيضاء. توقّفت أمام البوّابة العريضة ذات الرّضفتين.

«لا بدّ أن تأتي لرؤية الشقّة... إنّها في الطابق الأخير... هناك شرفة عريضة تطلّ على كلّ باريس.

- ماذا لو عاد سوليار بشكل مباغت؟»

كلّما كنت ألفظ اسم ذلكِ الطيف، كانت تتملّكني رغبة في الضحك. لم أكن أحتفظ منه سوى بذكرى رجل في معطف داكن في حافلة الموقوفين، ثمّ في ردهة

Twitter: @ketab_n

العيادة وفي المقهى على رصيف النهر. هل كان يستحقّ أن أعرف المزيد عنه؟ كان حدسي يقول لي إنّه من صنف والدي وكلّ الذين كنت ألاحظهم في الماضي في محيطه. لا يمكن معرفة أيّ شيء عن أمثال هؤلاء الأشخاص. يجدر مراجعة تقارير الشرطة التي أُعدّت بشأنهم، لكنّ هذه التقارير، على الرغم من كتابتها بلغة في غاية الدقّة والوضوح، تتناقض فيما بينها. ما الجدوى؟ رأسي المسكين يضجّ منذ بعض الوقت بأشياء كثيرة، وذلك الحادث كان له وقع هائل عليّ...

«لا تخشَ شيئاً. لا مجال أن يعود في الوقت الراهن. وحتّى لو عاد، فهو ليس شخصاً شرّيراً، لا عليك...»

قهقهَتْ بالضحك من جديد.

«هل يسكن هنا منذ وقت طويل؟

– لا يمكنني أن أجيبك بشكل دقيق».

بدت وكأنّها تهزأ بي بشكل لطيف. قلت لها إنّه ليس مدرجاً في دليل الهاتف تحت عنوان جادّة ألبير دو مان.

«غير معقول، كلّ العناء الذي تكابده للتوصّل إلى أمور مفروغ منها، قالت لي. أوّلاً، سوليار ليس اسمه الحقيقيّ.

Twitter: @ketab_n

إنّه الاسم الذي يستخدمه في الحياة اليوميّة...

- وهل تعرفين اسمه الحقيقيّ؟

- مورافسكي».

كان لذلك الاسم وقع أليف من غير أن يكون بوسعي معرفة السبب تحديداً. ربّما كان مدوّناً في مفكّرة والدي.

«وحتّى تحت اسم مورافسكي، لن تجد شيئاً في الدليل. هل تعتقد فعلاً أنّ لذلك أيّ أهميّة؟»

كانت على حقّ. لم أعد أرغب كثيراً في التفتيش في الدليل.

*

أذكر أنّنا خطونا بضع خطوات في ممرّات الحديقة، حول الأكواريوم. كنت بحاجة إلى التنفّس في الهواء الطلق. أعيش عادة في حالة من الاختناق المطوَّع- أو بالأحرى اعتدت التنفّس بجرعات صغيرة، كأنّه يتحتّم عليّ ادّخار الأكسجين. الأهمّ عدم الاستسلام للذعر الذي يتملّكنا حين نخشى أن نختنق. لا، بل مواصلة التنفّس على دفعات صغيرة منتظمة، وانتظار أن يفكّوا عنّا قميص المجانين ذاك التي يقيّدنا ويضغط على رئاتنا، أو أن

Twitter: @ketab_n

يتهالك ويتساقط شيئاً فشيئاً أسمالاً.

لكنّني في تلك الليلة، كنت أتنشّق الهواء ملء صدري في الحديقة، لأوّل مرّة منذ زمن طويل، منذ فوسومبرون لا فوريه، تلك الحقبة من حياتي التي نسيتُها.

وصلنا أمام الأكواريوم. بالكاد كنّا نحزر شكل المبنى في العتمة. سألتها إن كانت زارته. لا، أبداً.

«إذاً سوف أصطحبك إليه في أحد الأيّام...»

أمر يبعث السرور في النفس، أن نخطّط لمشاريع. أمسكَتْ بذراعي وكنت أتصوّر بالقرب منّا كلّ هذه الأسماك المزركشة بالألوان، تدور خلف الزجاج في الظلمة والصمت. كانت ساقي تؤلمني وكنت أعرج بشكل طفيف. لكنّها هي أيضاً كان تحتمل الخدش على جبينها. تساءلْتُ نحو أيّ مستقبل كنّا ماضيَين. كان يبدو لي أنّنا مشينا معاً من قبل في المكان ذاته، في الساعة ذاتها، في زمن آخر. لم أعد أدري أين أنا تماماً، على طول هذه الممرّات. كنّا على وشك بلوغ قمّة التلّة. من فوقنا، الكتلة الضخمة القاتمة لأحد أجنحة قصر شايو. أو بالأحرى فندق فخم من فنادق محطّة للتزلّج في إنغادين. لم يسبق لي أن تنفّست

Twitter: @ketab_n

هواء بهذه البرودة وهذه الرقّة. كان يتغلغل في رئتيّ بطراوة مخمليّة. أجل، لا بدّ أنّنا في الجبل، على ارتفاع عالٍ.

«ألا تشعر بالبرد؟ سألتني. ربّما صار بإمكاننا العودة...»

كانت تشدّ ياقة معطفها المرفوعة حول عنقها. العودة إلى أين؟ تردّدْتُ بضع ثوانٍ. أجل، إلى المبنى، على الجادّة المنحدرة صوب السين. سألتها إن كانت تعتزم المكوث فيه طويلاً. حوالى شهر.

«وموارفسكي؟

- آه... سيكون خارج باريس طوال هذا الوقت...»

مرّة جديدة، بدا لي ذلك الاسم أليفاً. هل سمعته من والدي؟ فكّرت في ذلك الشخص الذي اتّصل بي في أحد الأيّام من فندق باليم، وكان صوته مشوّشاً بسبب خشخشة الخطّ. غي روسّوت. كان لدينا مكتب مع والدك، هذا ما قاله لي. روسّوت. مورافسكي. هو أيضاً لديه مكتب على ما يبدو. كلاهما لديه مكتب.

سألتها عمّا يمكن أن تفعله مع مورافسكي ذاك المدعوّ سوليار في الحياة اليوميّة.

Twitter: @ketab_n

«أودّ معرفة المزيد. أعتقد أنّك تخفين عنّي شيئاً».

بقيَتْ صامتة. ثمّ قالت لي فجأة:

«لا، أنت مخطئ، ليس لديّ ما أخفيه... الحياة أبسط بكثير ممّا تظنّ...»

لأوّل مرّة، كلّمتني بدون كلفة. كانت تمسك بذراعي وكنّا نسير بمحاذاة مبنى الأكواريوم. كان الهواء لا يزال بارداً ورقيقاً على الصدر. قبل أن نعبر الجادّة، توقّفْتُ عند حافة الرصيف. كنت أتأمّل السيّارة أمام المبنى. في الليلة الماضية، حين جئت وحيداً إلى هنا، بدا لي المبنى مهجوراً والجادّة مقفرة، وكأنّ أحداً لم يعد يعبرها.

قالت لي مرّة جديدة إنّ هناك شرفة عريضة تطلّ على منظر باريس بكاملها. كان المصعد يرتفع ببطء. وضعَتْ يدها على كتفي وهمست كلمة في أذني. انطفأ جهاز توقيت الضوء، ولم يبق فوق رأسينا سوى نور ليليّ خافت.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلّف:

ولد باتريك موديانو في بلدة بولوني-بيّانكور قرب باريس في 30 تمّوز/يوليو 1945 لأمّ ممثّلة من أصل فلامنديّ، وأب يهوديّ فرنسيّ من أصل إيطاليّ شكّل غموض سيرته أحد أهمّ عناصر كتابات ابنه ومصادر إلهامه. برع موديانو منذ رواياته الأولى في تصوير الأفق الاجتماعيّ والسياسيّ المأزوم في فرنسا في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، وفي تحويل التجربة التاريخيّة إلى مأساة وجوديّة ضاغطة يعيشها أفراد محرومون من الإرث، ويفتقرون إلى أدنى المرتكزات، يحدوهم أمل جارف في تأسيس الذّات وتحقيق ما يكفي من الوضوح لإعادة ابتكار الحياة. تُوّج عمله بجوائز عديدة منها جائزة غونكور للرواية في 1978، وجائزة نوبل للآداب في 2014. له أكثر من ثلاثين رواية ومجموعة قصصيّة، وتصدر عن مشروع «كلمة» في أبو ظبي ترجمة ستّ من رواياته إلى العربيّة.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المترجمة:

دانيال صالح شاعرة لبنانية باللغة الفرنسية، لها مجموعتان شعريّتان بعنوان «حجارة الليل» صدرت في باريس عام 1984، و«الخطوات النائمة» صدرت في بيروت عام 1985. ترجمت في الصحف والدوريّات اللبنانيّة والعربيّة عشرات القصص القصيرة والقصائد لجاك بريفيروبول إلوار وجورج شحاده وتشيزاري بافيزي وهنري ميشو ولو كليزيو وغيرهم، وساهمت في ترجمة أشعارٍ لأنسي الحاج إلى الفرنسيّة، وأعدّت وترجمت بالاشتراك مع شارل شهوان أنطولوجيا للقصّة القصيرة بعنوان «ثلاثون قصّة من الكوكب». من ترجماتها إلى العربيّة «منصب شاغر» للبريطانية ج. ك. رولينغ، و«بوتشان» للياباني ناتسومي سوسيكي، و«فيضان ونصوص أخرى» لاميل زولا، والكتابان الأخيران صدرا عن مشروع «كلمة» للترجمة.

Twitter: @ketab_n

حادث ليليّ

«كنت أتساءل في تلك الغرفة من فندق فريمييه إن لم أكن أسعى، على الرغم من العدم الذي يلفّ أصولي والفوضى التي تحكم طفولتي، لاكتشاف نقطة ثابتة، أمر يبعث الطمأنينة، مشهد، يساعدني في هذا الظرف بالذات على تثبيت قدميّ والنهوض من جديد. ربّما هناك جزء كامل من حياتي لا أعرفه، قاع صلبة تحت الرمال المتحرّكة. وكنت أعوّل على سيّارة الفيات الخضراء المائيّة وعلى سائقتها لمساعدتي على العثور عليه».

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 174486